الفصل الثاني

أصالة المازنى

المازنى شاعر أصيل . . نبدأ بالنتيجة قبل بيان الأسباب والعدد ؛ لأننا نعتمد على الشعور الصادق والبديهة النافذة فى هذا الحكم ، ونعول عليهما التعويل كل التعويل فى مسائل الفن والأدب ، ولأننا بعد قراءتنا الاتهامات التى ووجه بها المازنى ماعتمنا أن رأينا أقواها لاينسب الفند إليه ولايطعن فى أصالته ، وإن سبب له لونًا من اللوم والمؤاخذة اللذين لايلبثان أن يجرفهما طوفان أصالته الزاخر ، واللذين لايسلم منهما شاعر كبير فى قديم أو حديث (١) ، ولأن سبيلنا توقير العظماء ومحاولة الدفاع عنهم ما أمكن الدفاع ، بشرط ألايكون على حساب الحقيقة ، ولكن الحقيقة تقال ويبقى بعدها مجال للتوقير والتقدير ؛ لأن أشواق الإنسانية وأحلامها منوطة بهؤلاء ، ماكانوا محل الإعجاب ، ولسنا على استعداد للإطاحة بهذه الأشواق والأحلام لأجل هنات هينات :

لاتلح ذا بأس . وذا همة ... على ذنوب العصبة الغلب
فليس مقياسك مقياسهم ... ولاهم مثلك فى المأرب
والليث لاتوثق أعضاده ... حبالة تنصب للثعلب
انظر إلى ماخلفوا بعدهم ... من المعالى ، ثم لم واعتب
لم يخط إن داس رءوس الهوى ... من علقت كفاه بالكوكب
من ركب الهائل من أمره ... فعذره فى ذلك المركب(٢)

وليس معنى ذلك الاستجابة إلى انفعالات أو الركوب لموجة إعجاب أهوج تدفع

---

(١) يدافع المازنى عن بشار فى كتابه عنه بقوله : «وقد أخذ بشار من غيره ، وأخذ منه غيره ، فأحسن الأخذ وأحسنوا ، وإذا ذكرت أن كل شاعر كان يحفظ كلام من سبقوه ويحرص على الإحاطة به ، فإنك خليق ألا تستغرب هذا التشابه الكثير بين معاني المتقدمين والمتأخرين ، ص١١٥ .

(٢) ديوان العقاد ، ص ٦٢٥ .

إليه عاطفة عـمياء ؛ بل إن هذه السبيل تستند إلى العـقل ، الذى يسير وفق المنهج الأخلاقى فى معرفة العظمة وتقديرها والإعجاب بها .

ومهما قيل - ويقال - من اتهامـات للمازنى . . فإن أصالته عندنا ليست محل حجاج ؛ لأن الشعور الصادق ، والبديهة النافذة لايعتريهما كذب «فالأصالة ظاهرة بنفسها لاتنتظر منا أن نضعها فى أنابيب الاختبار ، وهى ضوء متوهج لاتملك عين نكرانه ، وهذا صحـيح صحة لايعـتريها وهن أو شك . . . الشـعور الناشىء فى وجدان المرء عند تلقـيه حديث ذات صادقـة متميزة من غـمار الذوات . . . وليس لأحد أن يرد شهادة الشـعور أو يؤجلها انتظارًا لكلمة المعمل ، فإن للشـعور عملاً فى هذه الحياة لايغنى عنه حس أو منطق ؛ ونحن لم نعطه ليكون فضلة لاشأن لها بل ليكون هاديًا هداية العين المبـصرة والعقل المبصر ، وهو إذ يلبـينا حين يصمت العلم أسلوب عـملى لايـقل خطرًا عن سـائر أسـاليب العلم وإن باينهـا مـباينة جوهرية» (٣) .

وقراءة المازنى تشـعرك أنك أمام ذات متمـيزة ؛ تستطيع أن تميزه مـن غيره من الشعراء والكتـاب ، ولسنا نقصد الأسلوب وإن كان داخـلاً فى الحكم وإنما نقصد روح المازنى وفكره الساريين فى تجاليد عمله الفنى ، حتى فيما اتهم به .

فروح المازنى تطالعك وتجـاذبك العطف ، وتكاد تخترق حجـاز السطور لتلتقى بك، وأنت لاتعتم أن تحـتفى بهـا ، حتى ولو لـم تكن القـصيدة أو المقـالة ممهورة باسم المازنى «أو ليس يكفيكم أن يكون على الشعر طابع ناظمه وميسمه وفيه روحه وإحسـاساته وخواطره ومـظاهره نفسه ، سـواء أكانت جليلة أم دقـيقة شـريفة أم وضيعة؟ وهل الشعر إلا صورة للحياة ؟» (٤) .

وكأنما كـان يتحدث المازنـى عن نفسه فى هذه الكلمـة ؛ لأن كتابـاته لاتختلط بغيرها . . حتى فيمـا ترجمه من أدب الغرب ، يحس فيه أن المازنى هو الناظم أو الكاتب ، وأن ماتقرأه لم ينبت فى لغة غير العـربية ، ترجم بيتين (لهاينى) الشاعر

---

(٣) فلسفة الجمال عند العقاد وعلاقتها بآرائه في النقد ، ص٥٥ ، رسالة ماجستير معهد الدراسات العربية للحسانى حسن عبدالله .

(٤) شعر حافظ المازنى ، ص٥ .

الألمانى . إذا قرأتهما لاتشك فى أن المازنى صاحبهما ، وقد تقول إنها عبقرية فى الترجمة وهو صحيح ، وصحيح أيضًا أن ثمة صلة وثقى بين روح المترجم والمترجم عنه ، يفوت كل غرض فى الترجمة إذا انبتت هذه الصلة لأن تجاذب الأرواح أقوى من أواصر اللغة والأسلوب ، أو أنهما لايكونان شيئًا ذا بال إن لم يتخللهما هذا التجاذب . يقول هاينى أو المازنى - كما ذكر العقاد - :

أيها الزائر قبرى اتل ماخط أمامك
ها هنا فاعلم عظامى ليتها كانت عظامك[٥]

فإن هاينى لو كتب فى لغة العرب ماكتب بغير ماكتبه المازنى ، إن صاحبنا ليلبسه شيطان الاستخفاف والعبث فيخرج لسانه لزائره من تحت الثرى ، استخفافًا بوفاء الإنسان ، لأن غايته وغاية الحياة كلها هو هذا الملحود الذى تثوى فيه هذه العظام ، وكان يود أن تنتهى الحياة حين ينتهى أمدها «وكل ما أنقمه من الحياة والموت جميعًا أنى سأموت قبل كثيرين غيرى .. فما ضر لو قضت «الحياة» نحبها الآن فى عهدى» [٦] فلو لم يكتب هاينى بيتيه لكان المازنى كاتبهما على كل حال ؛ لأن التقاء الطبائع والأمزجة قبل اللغات والأفكار .

وفهم الطبيعة المازنية كفيل بتقديم العذر المقبول والشفاعة الواجبة حين تضيق ندحة المعاذير والشفاعات ، وبغير عرض هذه الاتهامات على تلك الطبيعة يظل السؤال معلقًا فى انتظار الجواب ، تلك الطبيعة التى سماها العقاد «الطفولة الخالدة» ؛ إذ هى «تفسر لنا عادة الانتحال دون ذكر المصادر، فإن الأعمال بالنيات حق لايصدق على شىء كما يصدق على نية المازنى ، وهو ينتحل الشعر ولايعزوه إلى أصحابه. وماكان رحمه الله حين يفاجأ منا فى مأزق من هذه المآزق إلا كالطفل يفاجئه أهل البيت وهو يخالسهم إلى الحلوى المشتهاة عنده. وماكان فى هذه النية من سوء قط بمعنى السوء، بل كانت أقرب إلى اللعب والولع بالمحاكاة»[٧] .

ولعل الولع بالمعاكسة البريئة ، وهو شعبة من شعب الطفولة الخالدة ، يفسر لنا

---

(٥) ديوان المازنى ص٢٢ ، وقد علق العقاد على هذين البيتين بذلك .
(٦) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .
(٧) مقدمة العقاد لكتاب أدب المازنى ، لنعمات فؤاد ، ص٨٢٧ .

كـثيـرًا مما اتهم به ، لأنه يريد أن يدخل الـغفلة على النـاس وأن يهز الراكـد من أفئدتهم وعقولهم ، ونحسبه يشبه صاعدًا الأندلسى فى ولعه بالمعاكسة ، وإن كنت لا أدرى مدى براءة صاعد كما أدرى براءة صاحبنا . . فإن صاعدًا كان راويًا أعظم منه لغويًا ، وكـان لغويًا أعظم منه راويًا ، وكان فنانًا أعظم منه عـالمًا ، ويبدو أنه أراد أن يكون - كما هو - راويًا شاعرًا فنانًا فأراده الأندلسيون على أن يكون لغويًا عالمًا محققًا ، ومن هنا جاء الصدام بينه وبـينهم ، وقد ساعدهم صاعد على نفسه بمزاجه وعابته وبمجاراته لهم ، وإيهامهم أنه فـعلاً عالم محقق ولغوى مدقق ، مع أن الرجل كان - إلى طبيعته الفنية - على كـثير من العلم والرواية والبصر بالشعر العربى ، وقـد اعترف له بعض الأندلسـيين بالتفـوق ، على أن هناك أمثلة كثـيرة يسوقونها لكذب الرجل وتدليسه وجـرأته على اللغة ، ولعل أكثر ماينسب إليه من ذلك إنما كان منه من قبيل الدعابات أو مجاراة الأندلسيين وإدخال الغفلة عليهم ، ولعله أيضًا مـبالغات من الرواة الأندلـسيين قد اقـتضتـها منافسـتهم للمشـارقة ، وتصديهم للوافدين المحظوظين عند الحاكمين . . حكى أن المنصور قال له مرة . . وقد قدم إليه طبق تمر - ما التمـركل فى كلام العرب ؟ فقال : يقال تمركل الرجل تمركلا إذا التف فى كسائه» (٨) .

فبشىء من الـدعابة والولع بالمشاكسـة كان يغرى كلا من صاعـد والمازنى بهذه الفصـول ، التى تبعث على الابتـسام وعدم الاسـترسال إلى مـاوراءه من التأنيب والنكير فضلاً عن جريرة الاتهام .

وللمازنى بعد ذلك أعذاره الخاصة التى لاتضـيق أمامها منادح القبول ، فالرجل مصاب بالنوراستانيـا وآفة النسيان ، وكان يصاب أحيانًا بالحـمى العصبية . . ومن شأن هذه الآفـات أن تتلف أعصـاب الأيد الجليد ، بله المازنى الضـئيل الوهنان ، وأن تعبث بالذاكرة عبثًا شديدًا من شأنه أن يخلط المرء بين ماله وما لغيره ، وأذكر أن أغلب كتابات المازنى - إن لم تـخنى الذاكرة أنا أيضًا - بها إشارات كـثيرة إلى آفة النسـيان هذه ، وأحـسبـها من جراء النوراسـتانيـا ، ولاسبيـل إلى رصد هذه الإشارات ، ولكن يكفى أن تحس معاناة الرجل من جرائهـا ومدى فداحة إحساسه

(٨) الأدب الأندلسى ط أولى ، صفحات ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، للدكتور أحمد هيكل ١٩٥٨ .

الثقيل بها ، حتى وهو يعتذر عنها «وليست الذاكرة خزانة مرتبة مبوبة ، وإنما هى بحر مائج يرسب فيه ويطفو بلا ضابط نعرفه ، ومن غير أن يكون لنا على هذا سلطان فالمرء يذكر وينسى ، ويغيب عنه الشيء ويحضر بغير إرادته وبلاجهد منه ، ويعلق بذاكرته مايعلق وهو غير دار أو مدرك لما يحدث ، وتتزاوج الخوالج وتتوالد كما يتزاوج الناس ، ويتوالدون وهو غير شاعر بشيء مما يجرى فى نفسه من التفاعل وأثره[٩] . . وفى هذا المقال نفسه يحاول أن يجسد سنداً من علم النفس ، ويرى أنه لاجديد فى تعليله - أى تعليل المازنى لاتعليل علم النفس - وإنما الجديد هو التطبيق ، ولست أحب أن أجعل من نفسى قاضيًا يحكم على هذا بالسرقة وعلى ذلك بالانتحال إلى آخر هذا ، وإنما أحب أن أعلل وأفسر الحالات أو الحركات النفسية ، التى تؤدى إلى مايمكن أن يسمى سرقة أو اقتباسًا ، أو التى تغرى إنسانًا بما فكر فيه غيره ، ولاجديد فى تعليلى أو تفسيرى فإنه قائم على علم النفس ، وإنما الجديد فيه هو التوجيه أو التطبيق ولافضل فى هذا ولامزية له .

ونعتقد أننا فى حل من إيراد بعض الشواهد على معابثة الذاكرة لصاحبنا لينفسح له مجال الاعتذار والقبول - وما كان ليضيق - ونحن لانملك رميه بالكذب لأنه لادليل لدينا فى مرتبة اليقين يرد شهادته لنفسه ، ولأن التكذيب دون حجة راجحة - إن لم تكن يقينية - شيء يرفضه العقل الراجح والمنهج العلمى السديد ؛ ولأنه من الممكن أن تعابثه الذاكرة حين يريد الكذب فيصدق ، وهو لايدرى ويكون كلامه مضطربًا مختلاً وهو مالانراه فى ثنايا كلامه يقول المازنى «رأيت فى المنام أنى رددت تلميذًا وقلما أذكر ما أراه فى أحلامى ؛ لأنى أنام كالقتيل من فرط الإعياء والنصب ثم لأن ذكراتى خوانة [١٠] ومعابثة الذاكرة تفاجيء صاحبنا فى مواقف يحسن فيها التذكر ولاتجمل اللجاجة فى النسيان ، وهذه فقرة فى موقف يحسن الإغضاء عما فيها من دعاباته ومزاحه لتخلص لنا الحقيقة التى نؤمها، يقول وأنا لا أعشق بالمعنى المألوف لأنى شديد النسيان سريعه ، والنسيان يجعلنى أمسى عاشقًا وأصبح ساليًا ، وكثيرًا ماحدث أنى عشقت ، ولكن الليل يجيء فأجوع -

(٩) مجلة الرسالة عدد ٢١٣ مقال للمازنى .
(١٠) الرسالة عدد ٢١٤ .

ولاسيما فى الشتاء - فآكل فيغلبنى النعاس والامتلاء يساعد عليه - وأنهض فى الصباح فيخطر لى شيء ساعة أفتح عينى على الدنيا فأشغل بذاك عما عداه . . ولكن البلاء والداء العياء أن ذاكرتى تفاجئنى بومضات التذكر ، حين تحسن اللجاجة فى النسيان (١١) .

والفقرة الأخيرة التى أولها «ولكن البلاء . . .» مهمة جدًا لأن ومضات التذكر تفاجئه فى حالة الكتابة فيأخذ مالغيره ، وهو يحسب أنه له على حين تحسن فى تلك الحالة اللجاجة فى النسيان ، وهذا هو البلاء والداء العياء ، الذى أصاب المازنى ومن جرائه كانت الاتهامات .

والفقرة التالية مهمة أيضًا فى الإبانة عن هذه الذاكرة الواسعة الخروق كالغربال، يقول : «وما قرأت كتابا إلا نسيت مافيه - نسيته جملة وتفصيلاً حتى اسمه واسم كاتبه ، وقد أعود فكأنى ماقرأته ولاسمعت به ، فهو فى كل مرة أعود فيها إليه جديد ولو كنت قرأته عشر مرات ، وهذا نافع لأن فيه اقتصادًا ، وكم من كتاب اشتريته ثم نسيت أين وضعته ثم يتفق أن أعثر عليه فأقف مستغربًا متسائلاً : أترانى قرأت هذا الكتاب من قبل أم لم أفتحه ، على كل حال ، الأمر سيان توكلنا على الله ، وأحسب هذا يجعل العلم والجهل سيين ، ولولا أنى أعرف أن ما أقرأ لايضيع وإنما يختفى لأغرانى ذلك بالانقطاع عن القراءة ؛ لقلة مايبدو لى من فائدتها المحسوسة (١٢) .

ولعله من الطريف المفيد أن نذكر هذه الأفكوهة عن المازنى «والمعروف عن المازنى أنه كثير النسيان ضعيف الذاكرة ، حتى إنه هم مرة يكتب كلمة الإهداء على كتاب له إلى شخص من ألصق الناس به فكتب «هدية إلى الصديق الأديب» ورفع رأسه إلى «الصديق الأديب» الأقرب الناس إليه : «اسمك إيه (١٣)» :

وقد ترفض الخبر مرتئيًا أنه نكتة مازنية يسمح بها المقام . وهذا صحيح ، وأصح منه لباب الخبر ومغزاه وهو معابثة الذاكرة حتى فى مجال التنكيت وربما كان

---

(١١) الرسالة ، عدد ١٨٥ .
(١٢) المرجع السابق عدد : ١٨٦ .
(١٣) السياسة الأسبوعية ، ٧ سبتمبر ١٩٢٩ ، مقال بإمضاء «أمينة» .

هذا المجال من دواعى عـدم رفض الخبر ؛ لأن المعـابثة فى هذا السـياق دليل على تمكنها من نفس صاحبنا أشد التمكن وأقواه .

وربما بلغ الإيحاء فى نفس المتلقى مبلغًا يتعذر معه التفلت ، وليس معنى بلوغه فى النفس أن صاحبـه يعرف مأتاه ، لأن حركته خـفية ، وليس لنا أن ننكره لأننا لاندركه «فالذى يحصله الأديب يختلط فى رأسه بما فيه ، ويتزاوج معه ويتولد من هذا التزاوج والاختلاط مايبدو جديدًا ولكنه فى الحقيقة مولد».

ويحدث فى بعض الأحـيان أن يطفو على السطح خاطر أو صـورة أو خالجة أو نحو ذلك ، وتكون مما قرأ الإنسان أو سـمع ولكنه لايدرى ، لأن الذاكرة لاتحتفظ إلا بالأقل ، أما الأكثر فتلقى به فيـما وراء الوعى ، وإلقاؤه فيما وراء الوعى ليس معناه ضياعـه . . فإنه يطفو لأسباب تخفى علينا ولاسلطان لنـا نحن عليها ، وقد نعـرف أنه هو الذى كان غـائبًـا عنها وهذا هو التـذكر ، وقـد يخـفى علينا ذلك ويختلط الأمر فنحسب أن الذى طفـا نتيجة جهدنا العقلى ، فـيقال سرق . . لكن السرقة غير مقصودة وإنما جاءت عفـوًا بلا عمد ، على أنه يحدث أحيانًا أن يستبد المعنى أو الفكر بالخاطر ويـستولى عليه ويتـسلط كما تتـسلط إرادة رجل على آخر وتتحكم فيه ، فلايعود يملك أن يخـرج عنها أو يهرب منها ، وقد يدرك أن فكرة غيره أسرته واسـتبدت به أو لايدرك . . فإن المهم هو هذا الأمر فيـحصل مايسمى السطو ، وترى الشاعر أو الكاتب أخذ المعنى الذى هو لـغيره وأدخله فى كلامه ، وهذا السطو لاينفى أن الذى أخذ قادر على ابتداع معنى كالمعنى الذى أخذه ، وإنما معناه أن المعنى استبد به ، فلم يستطع أن يتحول عنه أو يتخلص من أسره لنفسه ، ومؤدى هذا الكلام أن السرقـة الأدبية إذا لم تكن من معابثـة الذاكرة . . فهى من نتيجة الإيحاء سـواء أكان خفيفًا أم قويًا ، وظاهرًا أم خفيًـا ، ولايستغرب أحد أن يكون فى عالم الأدب إيحاء من القوة ؛ بحيث يشـبه التنويم المغناطيسى فما أعرف مايمنع ذلك» (١٤) .

وقد اضطررنا إلى الإتيان بهذا النص - على طوله - لأنه يـوضح إلى حد كبير

(١٤) سبيل الحياة - المازني ، ص ص٨١ ، ٨٢ .

موقف المازنى من السرقات الأدبية عمومًا ، ومن سرقاته بوجه خاص . ونعتقد أن ما اتهم به إنما هو من قبيل أخذ الغنى الذى يروقه ما على غيره من الثياب والرياش فيأخذه وهو آمن من اللوم ؛ لأنه لايئوده أن يأتى بمثله من ماله الخاص بخلاف أخذ المترب الذى لايملك شيئًا فإنه يأخذ ما لغيره لخصاصة فى نفسه وماله، وفرق هائل بين هذين .

«كتب بودلير إلى صديق له يقول :« أتعرف لماذا ترجمت فى صبر ودأب ماكتبه إدجار آلان بو ؟ لأنه كان يشبهنى ، ففى أول مرة تصفحت فيها كتابًا من كتبه ، رأيت فيه ماكان مثار فتنتى وروعتى ، لم أعثر على الموضوعات التى كنت أحلم بها فحسب ، ولكنى وجدت فيه كذلك الجمل ، التى كانت تراود أفكارى وكان له السبق إلى كتابتها قبلى بعشرين عامًا»(١٥) .

ويعلق الحسانى عبدالله على هذا النص بقوله : «وهذا الذى يقوله بودلير يذكرنا بما سماه نقادنا القدامى «الاغتصاب» (١٦)، وما يقوله بودلير ونقادنا القدامى ينطبق على المازنى لأنه كان يعلق بذهنه كثير مما يقرأ ، وإن كان النسيان يطارده ، ولكن محفوظه يطفو فوق السطح فى حالات الكتابة ، فيتسرب إليها قليل أو كثير مما قرأ وهو غير دار بما يحدث لأن حركة الذهن آنئذ خفية لاسبيل إلى استبانة معالمها وخطواتها ، وهذا المتسرب لاشك فى إعجاب المازنى به ولاشك كذلك فى شعوره بالخسارة لأنه سبق به ، وكان يود ألايسبق . وهذا هو أخذ الغنى الذى ألمعنا إليه آنفًا ؛ فالشاعر يعجب بما يقرأ ويعود هذا المقروء إلى المخزون اللاشعورى ، ثم يتفق أنه يريد الكتابة فيطفو فوق الأديم وشل أو فيض مما تغنى به وأعجب يقع تحت تأثيره فيخرج نتاجه وفيه أثارة مما قرأ وأحب ، ولاتعتريه دهشة لأنه يعتقد أن مخزونه أصبح ملكًا له أو يشعر بذلك على الأقل ، ولاتثريب عليه لأنه لاسلطان له على نفسه وتحركات ذهنه ، وبخاصة لدى شاعر كالمازنى مرشح - بطبيعة أعصابه وذاكرته لمثل هذا الاستيلاء .

وليس المازنى بدعًا بين أدباء الدنيا وشعرائها ، ولم تقم القيامة بسبب هذا

---

(١٥) فلسفة الجمال عند العقاد ، الحسانى عبدالله ، ص٥٨ .
(١٦) المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها .

الأخذ أو النقل كما قامت على المازنى فقد «ووجه يومًا جيته «أديب ألمانيا العظيم» بتهمة الأخذ والنقل لكثرة المؤثرات فى أدبه فقال : هذا مضحك ، فعلى هذا النحو يجوز لنا أن نسأل الرجل القوى عن الثيران والخنازير والغنم التى أكلها ، فأعطته القوة ، والصحيح أننا نولد ، وفينا كفاءاتنا ، وكلنا مدينون فى تكويننا لألوف المؤثرات ، التى تحتويها هذه الدنيا الواسعة التى نأخذ منها مايوائمنا ويدخل فى قدرتنا ، وإننى لمدين بكثير للإغريق والفرنسيين ، ومدين بما لا حد له لشكسبير وسترن وجولد سميث ، ولكننى إذا قلت هذا فليس معناه أنى أكشف عن ينابيع ثقافتى ؛ إذ هذا عمل لا آخر له ولاطائل تحته ، وكفى المرء أن يكون ذان نفس تحب الحق وتقبسه حينما كان» (١٧) .

وهذا المقياس لايتمثل فى الأدب وحده من فروع المعرفة ، فإن المعرفة بفروعها محكومة بهذا المقياس ، والحياة ذاتها خاضعة له كل الخضوع ؛ إذ أن صورها ليست جديدة مئة فى المئة ، وليست معادة أيضًا «الحياة قوامها عاملان : عامل النزوع إلى الحرية المطلقة فى الابتكار ، وعامل الوراثة الكابح من جماح هذه الحرية لردها إلى حدودها المعقولة ، ولو أن الحياة كانت تخرج صورًا معادة يطابق لاحقها سابقها ويتكرر أولها فى آخرها لكان استمرارها عبثًا لاطائل تحته وإسرافًا وسفهًا يستوجبان الحجر عليها ، ولو أن كل صورة تخرجها الحياة كانت تجىء جديدة من كل وجه لاتتصل بالصورة التى سبقتها من أية ناحية ولاتلتقى معها فى نقطة لفسد الأمر وصار فوضى ، ولهذا كانت الصور التى تخرجها الحياة أشبه بأن تكون توليدًا منها بأن تكون جديدًا محضًا ، فكل صورة مستحدثة لها نسب عريق فى الصور السابقة» (١٨) .

فالخلق على غير مثال شىء لايختص به غير الخالق الواحد ، وعزو كل إبداع إلى النفس الإنسانية وقدرتها عليه إنما يكون مما يدخل فى ذرعها ، وكلمة «النفس» كلمة واحدة فى اللغة ، ولكنها قمقم تنطلق منه المردة ، وهى أشبه ببرج بابل

وعزيز بلوغ هاتيك جدًا تلك عليا مراتب الأنبياء

---

(١٧) المرجع السابق ، ص٤٩ .

(١٨) السياسة الأسبوعية ، ٢٠ ديسمبر ١٩٣٠ ، مقال للمازنى .

لاتستطيع قدرة إنسان أن تسبر غورها وتكشف سرها .

ونحن أقرب إلى تصديق المازنى فيما يأتى به من تفسيرات ومعاذير ، ولانرى موجبًا عقليًا لتكذيبها لاهروبًا من المشاكل ، ولكن وقوفًا عند حد الطاقة الإنسانية، مادامت المسألة من مسائل الذهن والنفس وحركاتهما خفية عن صاحبهما فضلاً عن غيره .

ويلتمس المازنى مشابهات لما وقع له فى الآداب العالمية . . فيروى قائلاً : «إن صديقى الأستاذ العقاد أعارنى يومًا قصة «تاييس» لأناتول فرانس فقرأنها بلهفة ، فقد استطاع المترجم الإنجليزى أن يحتفظ بقوة الأسلوب وتحدره وبراعة العبارة وسحرها ، ومضت بضعة أشهر ، ثم دفع إلىَّ الأستاذ العقاد رواية «هايبيثيا» الكاتب الإنجليزى «تشارلز كنجزلزى» فقرأتها أيضًا ، ثم سألنى مارأيك ؟ فقلت : غريب ، قال : إن الروايتين شىء واحد قلت : صحيح» (١٩) .

وفى هذا النص ترى العقاد والمازنى يتفقان على أن الروايتين شىء واحد ، ولكنهما لم يصدرا حكمًا بمؤاخذة اللاحق أن تقيل خطى السابق مما يشعر على الأقل - أنهما يفسحان العذر للمحتذى ولايلومانه .

ويرى العقاد أن علم النفس «كان كافيًا حتى الآن لتعليل حفظ العقول صفحات عديدة فى حالة «الغيبوبة» أو حالة التنويم المغناطيسى أو حالة «التنويم الذاتى» أو مايشبه هذه الحالات من عوارض الحمى العصبية . . فإذا رأينا حالة كالتى رواها صديقنا الأستاذ المازنى (٢٠) ، يستوعب فيها الإنسان بضع صفحات لايخرم منها حرفًا أو نقطة - ثم يعيدها وهو معتقد أنه يمليها من وحى بديهته فلنرجع إلى علم النفس فى وصف العوارض ، التى تأتى بهذه الغرائب . . فإنه لكفيل بتعليلها أو بإبداء مقطع الحق فيها» (٢١) .

وعوارض الحمى العصبية والنوراستانيا تقف وراء هذه الغرائب المازنية ، التى كانت سبب اتهاماته بجانب العوارض الأخرى التى أسلفناها .

---

(١٩) الرسالة ، عدد ٢١٣ .

(٢٠) يقصد رواية المازنى عن اقتباسه صفحات فى رواية «إبراهيم الكاتب» من رواية «ابن الطبيعة» ، دون ذكر المصدر ، وهي في مقال له بالرسالة ، عدد ٢١٣ .

(٢١) يسألونك العقاد ، ص٢١٩ ، لجنة البيان العربي ، ١٩٤٦ .

وفى مقالة العقاد التى اقتطفنا منها النص السابق ، يتحدث عن كتابات (عظماء الرياضيين) لكاتب أوربى وقبل أربع عشرة سنة كتب مقالاً مناقشًا فيه المازنى عن مقال للأخير عن الخيام ، فَرَّق فيه العقاد بين عقول الرياضيين والطبيعيين وغيرهم، قبل أن يصدر الكاتب الأوربى كتابه «عظماء الرياضيين» . ويتساءل العقاد فى هذا الصدد «أما كان أقرب الاحتمالات إلى الذهن أننى قرأت ذلك الكاتب ، واستوحيت منه التحليل الذى فرقت فيه بين عقول الطبيعيين وعقول الرياضيين وعقول الموسيقيين ؟ أما كان من المستغرب يومئذ أن يقال إننى لم أطلع على ذلك الكتاب . . فأما وصدور الكتاب بعد كتابة المقال محقق لاشك فيه فهذا التوافق يبدو سهلاً جائزًا خلوا من الغرابة ، ومن ثم ينبغى أن نقدم الاستقراء العقلى - فى تمحيص الخواطر المتواردة - على استقراء التاريخ مع رجاحة هذا وصعوبة الاستغناء عنه ؛ لأن استقراء التاريخ وحده لايكفى للبت فى جميع الأمور ، ونعنى بالاستقراء العقلى أن نمتحن ذهن الكاتب وأن نتابع وجهته فى تفكيره ، فإذا عرفنا أنه قمين أن يقول ماقال ؛ وأن يخوض حيث خاض ؛ ويتوجه حيث توجه . . فالاتهام بعد ذلك ضرب من اللغو والتمحل ، وإن لم يكن كذلك فهو متهم، ولو لم يكشفه التاريخ» (٢٢) .

ولعله يحق لنا أن نسأل الآن عن معنى الأصالة ، وربما يخطر على البال أن السؤال تأخر عن موضعه ، وفى الحقيقة نحن نقصد هذا التأخير لأن أصالة المازنى ليست محل حجاج ، بقدر ماكان صاحبها فى حاجة إلى إنصاف ، ولعل تأخير هذا السؤال يوحى بإرادة الإنصاف لاستحقاقه إياه .

مقابل كلمة «الأصالة» فى اللغة الفرنسية Originoliti وفى اللغة الإنجليزية الكلمة نفسها ، مع فارق يسير فى الكتابة Originality . ومن معانيها الطرافة والابتكار ، ويعرفها ستيفن سبندر «بأنها جرأة فى الطبع تتيح لصاحبها أن يصدق خيال مايراه وأن يصدق مع نفسه ، وينكر توماس هاردى أنها جدة فى الفحوى مرتئيًا أنها نغمة جديدة تبزغ فيضطرب لها النقد والنقاد ، ويرى كولردج أنها تطلع دائم إلى الإدهاش وينكرجون لفنجستون لويس أنها اختراع مفضلاً تعريفها بأنها

(٢٢) المرجع السابق ، ص ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

القدرة على رؤية الإمكانات الخفية فى الأشياء المعهودة ، ويعتقد اليوت بأنها ليست إلا تقدمًا أو نموًا مطردًا (٢٣) .

ونخلص من هذه التعريفات بأن الأصالة فذاذة وطرافة وابتكار وليس معنى هذا الخلق من العدم ؛ لأن طبائع الأشياء تأباه ، وإنما المقصود أن العمل عليه ميسم صاحبه ووهج روحه برغم امتلائه بكلام من سبقوه ولاعجب فالكلام من الكلام ، يقول جيته «يتحدث الناس دائمًا عن الأصالة ولكن ماذا يعنون ؟ إننا ما إن نولد حتى يبدأ العالم تأثيره فينا تأثيرًا يبقى مابقينا فماذا نسمى طاقة لنا وليست لنا ؛ وقوة لنا وليست لنا إننى لو استطعت أن أبين كل ما أنا مدين به إلى العظماء من الأسلاف والمعاصرين فلن يخلص لى إلا القليل» (٢٤) .

ينبغى إذًا أن نكون على حذر شديد من إطلاق الأحكام النقدية فيقال مثلاً إن المازنى متأثر بفلان من الكتاب الغربيين أو العرب ، أو سرق كذا وكذا ، ثم نسكت عن تحليل الحكم ، وكأنما يكفى أن نطلق كلمة تأثر أو سرقة ليستبين المقصود ، مثل هذه الأحكام - إن صحت تسميتها أحكامًا - فى نهاية الخطورة على أصحابها وعلى المنقودين وعلى الحركة النقدية كلها ؛ لأنها أحكام مبعثها فجاجة فى الفكر ، وفهاهة فى النظر والحكم .

ولسنا مطالبين بنبش القلوب حتى نعرف دخائل النيات ، وإن كان الاعتساف فى الأحكام يبين إلى حد بعيد مدى لعب الأهواء بأصحابها ، وسوف نحاول الآن أن نقف على هذه الأحكام التى اتهم بها المازنى .

نستطيع أن نقول بموضوعية شديدة إن الأحكام التى ضمها كتاب «رسائل النقد» لرمزى مفتاح ، والمقدمة التى كتبها له جبران سليم مهاترات وتدل مسف لاتدل على شىء ، كما تدل على استبداد الهوى والتعصب المقيت بنفوس هذا الطراز من الخلق ، ولانحب أن يجرفنا مثل هذا التيار فنتدلى كما تدليا ، وحسبنا أن نورد شيئًا من هذا الكتاب لنستبين الفجاجة والتزييف من غير تعليق منا .

---

(٢٣) فلسفة الجمال عند العقاد : الحسانى عبدالله ، ص٤٤ .

(٢٤) المرجع السابق ، ص٤٩ .

«وكان الشاعر الصغير - أى شكرى - يجد راحة فى تثقيفهما - أى العقاد والمازنى - وكانا لخلوهما من كل اطلاع وهما فى تلك السن يتلقيان دروسه كما يتلقى ظامىء الصحراء نبعًا عذبًا ، وفوق ذلك فقد أدركا منزلة ماكان يؤملان اغتنامها ؛ فإن بعض الأدباء كانوا يتزلفون إليهما كى يفوزوا بمعرفة الشاعر الزعيم، وكانوا يجعلون آراءهما فى منزلة الصحيح الذى لاريب فيه لإدراكهم أنهما يستقيان من ذلك النبع» (٢٥) .

ومنه «يامازنى سيدفعك حب الشهرة إلى الباب الذى لفظتك المقادير على قرابة منه وهو باب الأدب وسيدفعك العجز إلى السرقة ويدفعك التمرس إلى حسن التمويه ، وصمت ثم قال كأنه قاض يلقى حكمًا رهيبًا لامرد له : ياإبراهيم أفندى ستعيش عمرك لص الأدب» (٢٦) .

ومنه «فراحا - أى العقاد والمازنى - إذا تلا عليهما قصيدة من شعره لم تطبع وقرب إلى فهمها من مراميها يعارضانها بالوزن والقافية ومايعرض لهما من الحبس ويفندان ، وهما يأملان أن يثبت المعارضة فى ديوانه ويشير إليهما بالفضل ، وإذا نشرت له قصيدة فى إحدى الصحف كعكاظ والبيان راحا يلاحقانه ويلحفان عليه فى الوساطة لهما بنشر معارضة لها » فكان يعرض عن ذلك ، ومن أمثلة ذلك أنه لما كتب قصيدة «أحلام الموتى» راح المازنى يعكس الأمر ويدعى أن عبدالرحمن شكرى أرسلها إليه رداً على قصيدته ، وهرول العقاد يغنم تلك النهزة فنظم هذيذا فى ذلك الباب ويدعى مثل دعوى المازنى» (٢٧) .

ونعتقد أن مطالبتنا بالرد على هذه الأراجيف وتحليلها شىء غير منطقى وغير معقول ، لأن مثل هذا الكلام نجله كثيراً إن رددنا عليه بالكلام ، فإن لمنطق الكلام حدًا لايتعداه ولايسف إلى ماهو دونه ويكفى أن التعصب الأعمى مبتعث هذا الكلام ، وأن التدليس والكذب رائده ، وماكان فى هذا المستوى نعتقد أن البحث العلمى لايأبه به ولايعيره التفاتًا ؛ وإنما سودنا به الورق لنرى لونًا من الاتهامات

---

(٢٥) رسائل النقد رمزى مفتاح ، ص١١ ، ط ثانية مطبعة الإخاء ، دون تاريخ .
(٢٦) السابق ص١٥ والكتاب علي طريقة القصص .
(٢٧) السابق ص٢٣ .

التى ووجه بها المازنى ، ويكفى لمن له أدنى إلمام بعلاقة هؤلاء الثلاثة وبثقافتهم أن يدرك لأول وهلة أن مثل هذا الكلام خطأ صراح ، وأن من العبث إضاعة الوقت فى الرد عليه ، وهو بين الفجاجة بين الزيف . .

لون آخر من الأحكام لايخضع للتحليل والتدقيق ؛ يجنح به أصحابه إلى التعميم الذى يضر أكثر مما يفيد ، من ذلك ماكتبه أحد الكاتبين [٢٨] عند تعليقه على بيتى المازنى :

لبست رداء الدهر عشرين حجة وثنتين ياشوقى إلى خلع ذا البرد

عزوفا عن الدنيا ومن لم يجد بها مرادا لآمال تعلل بالزهد

يقول : «ومن الواضح أن هذين البيتين شديدا التأثر بالشعر العربى القديم حتى ليوشك الشطر الأول من البيت الأول أن يكون نقلا عن بيت قديم ، أما البيت الثانى فهو معنى متواتر نلمسه فى قول المعرى .

خوى دون شرب فاستراحوا إلى التقى فعيشهم نحو الرواح خوادى»

إن السيد الكاتب لايقول شيئًا حين يقول مثل هذه الأشياء لأنه أولاً لم يحدد معنى كلمة التأثر ، وهى كلمة سهلة صعبة : سهلة فى إصدارها ، صعبة حين نريد تحديدها ، وقد زاد المسألة صعوبة حين قال «شديد التأثر» ، ومن الواضح أنه لاضير على أصالة الكاتب أن تنضح آثار ثقافته فى عمله بل لابد من هذا بشرط أن يحيل هذه الثقافة إلى جزء منه ، فكلمة التأثر فى هذا الكلام لامعنى لها لأنها لم تحدد المقصود ، وثانيًا جعل الكاتب التأثر بالشعر العربى القديم حتى ليوشك أن يكون الشطر الأول من البيت الأول نقلا عن بيت قديم - وليست هناك أحكام فى الدنيا بمثل هذه الصورة من التعميم ، حتى إنه حينما أراد أن يحدد لم يأت بدليل هذا النقل من البيت القديم ، وبالتالى ليس لنا حكم على هذا الحكم - إن صحت تسميته حكمًا - ثالثًا فى حكمه على البيت الثانى حينما أراد أن يكون دقيقًا اضطرب فى يديه المقياس وناقض نفسه - فكون المعنى متواترًا ينفى نظرة

(٢٨) صلاح عبدالصبور فى مجلة الكاتب سبتمبر ١٩٦٢ .

المازنى إليه لأن هناك معانى عامة إنسانية خالدة ليست ملكًا لأحد ، والوقوع عليها مما تتفق فيه قرائح البشر عمومًا لاقرائح الأدباء فى أمة واحدة ، بل يكاد يتفق فى الوقوع عليها المثقفون والعوام ، وفى هذا الإطار لايقال إن المازنى أخذ من المعرى أو غيره لأن كليهما ناظر إلى التجربة البشرية عمومًا فى مسارها الطويل ، فضلاً عن أنه أورد بيت المعرى خطأ ، فكلمة (فعيشهم) لاتتمشى مع السياق ، وصحتها (فعيسهم) ويناسبها الإخبار بكلمة «خوادى» ونحن نشك كثيراً فى أن السيد الكاتب يفطن إلى هذا الفرق مع بداهته .

عقدة مثل هذه الأحكام تجريد المجددين قبل حركة الشعر الحر وبخاصة أصحاب الاتجاه التجديدى الذهنى من الإبداع ، وأنهم مهما بلغوا - يتقيلون الأدب القديم ولايستطيعون الانفكاك من إساره بعكس حركة الشعر الحر - ومن شعرائها السيد الكاتب - وكلها تجديد - وليس لها أى تأثر بهذا الأدب القديم ، إذا فهمت هذه العقدة على وجهها الصحيح - وينبغى أن تفهم - فهم هذا التعنت فى الأحكام الذى يجرفهم إليه فرض سابق قر فى عقولهم قبل الحكم مما يسبب الاهتزازات والتخبطات التى لا أول لها ولا آخر .

ومما يؤيد ماذهبنا إليه من هذه العقدة قوله بعد ذلك «لا أتردد فى القول بأننا نلمس فى معظمه تأثرات بقصائد قرأها أو أفكار استفادها من قراءاته ، ولا أتردد فى القول كذلك بأنه كان يعانى فى سبيل التعبير عن هذه الأفكار الجديدة والأحاسيس الجديدة بلغته التقليدية القديمة» ، فمسألة الأفكار الجديدة والأحاسيس الجديدة والتعبير عنها بلغة تقليدية قديمة هى عقدة العقد عن هذا الطراز من الكتبة ، ويوردونها عند كل مناسبة بل فى غير مناسبة ، وإلا فما فائدة الدعوى التى يدعونها إن لم تأت بشىء ، ولو كان على حساب الحقيقة والصدق والتاريخ .

وإن المرء ليأخذه العجب العاجب حين يقرأ مثل هذه الدعاوى ، ويعجب أكثر حين يجد من يستمعون إليها ، ويصدقون بها ، ولايعطونها ما تستحقه من الإزراء - وهو هنا موضوعى مطلوب - خطأ فى النظر وخلل فى التطبيق .

يتحدث المازنى عن عذاب الشعر بقوله :

ويصدر عنا الناس ريا قلوبهم ... ونحن عطاش بينهم نتلهف

يعلق عليه السيد الكاتب : ولابد أن ترد إلى ذهنه - أى المازنى - صورة البئر فى الجاهلية حين يردها الناس ويصدرون عنها ، ولابد أيضًا أن يذكر البيت العربى المشهور :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

وكأن المسألة تحتاج إلى هذه الدورة المضنية الطويلة ليعرف المازنى أو غيره أن الشاعر يظمأ وهو يروى غيره وكأن صاحبنا فى حاجة شديدة إلى ورود صورة البئر فى الجاهلية إلى ذهنه وذكره للبيت العربى المشهور ليقول بيته ؟ وهبه كان ، فما العجيب ؟ إن عذاب الشاعر ومعاناته لما يكتب ويبدع شىء يحسه كل شاعر من لدن القدماء إلى الآن وإلى ما بعد الآن ، وادعاء أنه «لم يكن الشعراء الجاهليون والإسلاميون يعرفون عذاب الشعر ويقدرون أن للشعر رسالة يجب أن يؤديها» حتى تأتى هذه الأفكار المستحدثة فى هذه الأيام والتى نقلها المازنى عن الغرب - ادعاء باطل يكذبه منطق العقل والتاريخ» فللشعر عذابات يدركها من اضطر إلى مضايقه وهو :

صعب وطويل سلمه ... إذا ارتقى فيه الذى لايعلمه

هوت إلى الحضيض قدمه

ولعل ابن الرومى من شعرائنا الذين صوروا هذه المعاناة تصويرًا بليغًا ودقيقًا يقول :

قولا لمن عاب شعر مادحه ... أما ترى كيف ركب الشجر

ركب فيه اللحاء والخشب ... اليابس والشوك دونه النمر

وكان أولى بأن يهذب ما ... يخلق رب الأرباب لا البشر

* * *

فليــعــذر الناس مـن أســاء ،   ومن قـصـر فى الشعـر إنه بشـر
مطلبـه كالمـغاص فى درك اللجة   مــن دون درهــا الخــطــر

فـهل كانت هذه الأقـوال - وكـثيـر غـيرها - فى حـاجـة إلى انتظار الأفكار المستحدثة التى يشير إليها هذا الكاتب .

أما مسألة تقدير القدماء لرسالة الشعر التى يجب أن يؤديها ، فنعتقد أنها مسألة خالدة فى آداب الدنيا لا أدب قـدمائنا فقط ، عرف الناس أن للشـاعر رسالة لأنه بمثابة الهادى لقومه ولأنه يسجل مفاخرهم ومحامدهم .

ولولا خصال سنها الشعر ما درى   بناة العلا من أين تؤتى المكارم

مثل هذا الوعى برسـالة الشعر لايصح لنا أن نلغيـه ونحن وادعون ولايصح لنا أن نظلم القدماءوالمحـدثين لأجل «سواد عيون» الرومانتيكيـة فإن مثل هذه الأفكار التى بشرت بها الرومـانتيكية أدركها الـقدماء عندنا وإن لم يسموها بهـذه الأسماء المصرية والمصطلحات الحديثة ، وهل من الصحيح أن المازنى وقف به إدراكه ، فلم يدرك أن الشاعـر «يحترق ليضىء للناس» حـتى يأتى الضوء الأوروبى ليقـفه على هذه المعجزة الخالدة ، يقول العباس ابن الأحنف :

كنـت كــأنى ذبـالة نصــبت   تضــىء للناس وهـى تحـتــرق

ومن القضايا التى أثارها السيد الكاتب أن المازنى «نلـمس فى شعره أحيانًا ولعه بتقليد مايقرأ من أدب الغرب ، حتى ولو كان الذى يقلده لايكاد ينسجم مع الروح العربية» .

عـوج فى المنطق وأمت فى الفكر أن نتـهم المازنى بالتـقليـد ، وهو الذى أفنى عمره فى مـحاربته ، يقول المازنى : «ولكنى لسوء الحـظ أحد من يمثلون المذهب الجديد الذى يدعو إلى الإقـلاع عن التقليد والتنكب عن احتذاء الأولين فـيما طال عليـه القدم ولم يعـد يصلح لنا أو نصلح له أقـول لسوء الحظ لأنه لو كـان الناس كلهم يرون رأينا فى ضرورة ذلك وفى وجوب الرجوع عن خطأ التقليد لربحنا من الوقت مانخسره الـيوم فى الدعوة إلى مذهبنا ومحاولة رد جـمهور الناس عن عادة

إذا مضوا عليها أفقدتهم فضيلة الصدق ومزية النظر وهما عماد الأدب وقوام الشعر والكتابة» (٢٩) .

ولسوء الحظ أن السيد الكاتب أورد هذا النص فى مقاله وعلق عليه بقوله : «وأول مانلمسه هو فزعه - أى المازنى - من التقليد وكراهيته له» ونستطيع أن نقول إن السيد الكاتب تناقض مع نفسه ، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول : ربما تناقض النظر والتطبيق عند المازنى ، فالنظر عنده متسق وعندما حاول التطبيق اختل الميزان ، وربما وجد هذا الخلل ولم يشر إليه وإنما حاول أن يأتى بمثال من شعر المازنى ليرى فيه تقليدًا لشكسبير» ولكننا نستطيع أن نطرح هذه «الربمات» لندرك أن الخلل فى ميزان السيد ، وأن العقدة التى ألمعنا إليها هى مصدر هذا التحامل .

للمازنى قصيدة فى رثاء زوجه يقول فيها :

تأملتها حتى تحرك ساكن ... من الثغر والعينين والرأس والصدر

أيصبح هذا الحسن قبحًا وجيفة ... بلى ويسد الأنف من نتنه المزرى

ويمسى صديدا كل ماكان من قوى ... وماء شباب مستحير ومن سحر

فيا بؤس للبوغاء يعفر وجهها ... ويكحل جفنيها ويلصق بالنحر

وللدود يقتات الليالى بحسنها ... ويتركها كوما من الأعظم النخر

يرى الكاتب أن منظر حفار القبور فى مسرحية هاملت لشكسبير هو الذى أوحى للمازنى بهذه المقطوعة وأن المقولة النقدية من أن للفنان الحرية فى اتخاذ القبح موضوعًا للفن كما يتخذ الجمال موضوعًا له وراء هذه المقطوعة أيضًا .

وليس المازنى ولاغيره فى حاجة إلى الاستجابة إلى هذه المقولة النقدية لأنها موجودة فى نقدنا القديم قبل اجتلابها من الغرب ؛ قال قدامة بن جعفر : «ومما يجب تقدمته وتوطيده قبل ما أريد أن أتكلم فيه أن المعانى كلها معرضة للشاعر وله أن يتكلم فيها فيما أحب وآثر من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه إذ كانت المعانى للشعر بمنزلة المادة الموضوعة ، والشعر فيها كالصورة ، كما يوجد فى

(٢٩) شعر حافظ ، ص٢ .

كل صناعة من أنه لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور فيها مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة ؛ وعلى الشاعر إذا شرع فى أى معنى كان من الرفعة والضعة والرفث والنزاهة والبذخ والقناعة والمدح ، وغير ذلك من المعانى الحميدة أو الذميمة أن يتوخى البلوغ من التجويد فى ذلك إلى الغاية المطلوبة ، فإنى رأيت من يعيب امرأ القيس فى قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع　　فألهيتها عن ذى تمائم محول

إذا مابكى من خلفها انصرفت له　　بشق ، وتحتى شقها لم يحول

ويذكر أن هذا المعنى فاحش وليس فحاشة المعنى فى نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه كما لايعيب جودة للنجارة فى الخشب مثلاً كرداءته فى ذاته» (٣٠) .

وما كان المازنى أيضًا فى حاجة إلى إيحاء شكسبير له حتى يكتب هذه المقطوعة، فإن مثل هذه المعانى والإحساسات مما تقع عليه القرائح لافرق بين سابق ومسبوق ؛ فالمازنى يرى زوجته الجميلة المحبوبة يصوح جمالها بين يديه وتذوى . ثم يقارن هذه الصورة الحية المبهجة بصورتها وهى طعام الديدان رهن المقابر يكحل جفنيها التراب . . . كل الناس يدركون هذه الصورة ولكن الشاعر هو الذى ينقل هذا الإدراك إلى عمل فنى .

ومن الزاوية نفسها يرى الكاتب أن المازنى «ازدادت جذوره ، عمقًا فى الكتاب المقدس ؛ وخاصة سفر الجامعة بن داود .

كم غصت فى لجة الحياة فما　　فزت بغير الصخور والحجر

وكم نفضت اليدين من حجر　　حسبته درة من الدرر»

ونستطيع أن نقول - كما قلنا آنفًا - إن هذه المعانى وأشباهها عامة وخالدة وليست ملكًا لأحد ، ولايعيب المازنى أو غيره أن يلتفت إلى مثلها ، ونعتقد أنه لو لم يقرأ سفر الجامعة لعبر عن هذا المعنى وأشباهه لأنه لايتكاءده التعبير عن مثله، فإن حرارة الصبا وغرارة الأمل لايعتمان أن تشيع فيهما الرعدة حين تجابهما

(٣٠) نقد الشعر -قدامة بن جعفر ، ص ص١٣ ، ١٤ ، الطبعة الأولى بتحقيق كمال مصطفى ١٩٤٨ .

برودة التجربة وحنكة السن وعصف الخريف - وهذا شيء يتعرض له كل الناس ولكن الشاعر هو المعبر عنه .

وليس معنى ماتقدم من دفاع عن المازنى - أو الحقيقة - أنه لم يقرأ كل ما أشار إليه الكاتب بل إنه قرأه وامتصه وذوبه فى نسيجه (دمامازنيا) وتلك هى آية الأصالة .

ونحسب أن الطريقة التى ناقشنا بها الكاتب تساندها الموضوعية كما نفهمها - لأن للموضوعية حدًا ينبغى ألانهبط به ، ولأن من الموضوعية أيضًا أن كل كلام بما يناسبه يجابه وليس أفضل - فى رأينا - من الثوب الذى فصلناه على قد هذا الكلام .

ومن قبيل هذه الاتهامات التى لامعنى لها لأنها تقف عند تعميمات ماقاله أحد الكتاب [٣١] عند تعليقه على أبيات المازنى التى يقول فيها :

أكلما عشت يوما أحسست أنى مته
وكلما شمت خلا وجدت أنى فقدته
ثوب الحياة بغيض ياليتنى ما لبسته

يقول الكاتب : «إن هذه الأبيات البليغة التى تقطر أسى ومرارة ، تصور إلى أى حد أوغل المازنى فى التشاؤم ، وإنى لموقن أن المازنى فى رأيه هذا قد تأثر إلى حد كبير بأبى العلاء المعرى حتى حاكاه فى الكثير من أقواله» .

ويقول كاتب آخر [٣٢] : «وكأن حساسية المازنى وتأثره بابن الرومى عملا جنبًا إلى جنب لتكوين المازنى الشاعر» .

وقد جمعنا هذين القولين لأنهما صادران من اتجاه واحد لايصدر عن تحديد هذا التأثر وهما يشبهان إلى حد بعيد ماقاله كاتب قبلهما ناقشناه قبل ذلك ، وإننا لنتساءل أين هذا التأثر الكبير بأبى العلاء ومحاكاة المازنى له فى كثير من أقواله كما

(٣١) عبدالسميع المصرى ، مجلة الثقافة ، عد ٦٠٣ .
(٣٢) غائب طعمة فرمان مجلة الثقافة عدد ٥٥٧ .

يقول السيد المصرى ، هل كان المازنى فى حاجة كبيرة ليعرفه أبو العلاء أن ثوب الحياة بغيض ، ولايستطيع بما لقيه من عنت وألم أن يبغض هذا الثوب ويتمنى عدم لبسه ؛ وهل لم يفترع هذا المعنى شاعر قبل أبى العلاء ، ألم يسمع الناس بزهير الذى سئم تكاليف الحياة بعد أن عمر ثمانين عامًا ، وعلى افتراض أن المازنى تأثر فى هذا بأبى العلاء - وهو افتراض واهم - فأين هذه المحاكاة الكثيرة من قبل المازنى لشيخ المرة ؟

ونسائل السيد غائب عن مدى تأثر المازنى بابن الرومى وأين حدود هذا التأثر الذى عمل جنبًا إلى جنب مع حساسية المازنى لنكوين الشاعر منه .

فأبو العلاء وابن الرومى رافدان من روافد ثقافة المازنى لامشاحة فى ذلك . وليس المازنى مسخا لهما أو صورة محاكية لهما أو لأحدهما .

إن من البديهى أن نقول : إن مثل هذا الكلام غير مسئول ، ومن الغبن للحقيقة - لا للمازنى فحسب - أن تشيع مثل هذه الأراجيف وأن يتلقاها الناس بآذان واعية، وأن يبسموا بسمة الخفة فى وجهك حين تقول لهم إن المازنى شاعر أصيل، لأنهم انقادوا إلى سماع هذه الأحكام وكأن كل ماشاع صواب لاينبغى لهم أن يجابهوه ببسمة ساخرة توائم هذا اللون من الكلام .

وقبل أن نورد الاتهامات الأخرى يحسن بنا أن نورد نصًا للمازنى لأنه مهم فى الإبانة عن أساس هذه الاتهامات .

سألته مجلة الهلال فى عددها الصادر أول يناير عام ١٩٢٧ : ما الكتاب أو الكتب التى طالعتموها فى شبابكم فأفادتكم وكان لها أثر فى حياتكم ؟ وأجاب المازنى بما يلى : «هما كتابان وجها نفسى هذا التوجيه ديوان شلى الشاعر الإنجليزى وديوان الشريف الرضى الشاعر العربى ، بهما بدأت مطالعاتى الجدية - على خلاف العادة - وعلى إثرهما استنزفت أيامى فى معاناة الأدب . . وقد قرأت قبلهما شيئًا كثيرًا من أمثال ألف ليلة وليلة وسيف بن ذى يزن ، ولكنى لا أعلم أن هذه الطبقة من الكتب كانت تنبسط لها نفسى أو يتفسح لها طبعى» .

والذى يقرره هذا النص أن هذه الطبقة من الكتب أيقظت المازنى من غفلته

السادرة فى عالم ألف ليلة وليلة وسيف بن ذى يزن ، ومن المعهود أن هذه اليقظة تترك انطباعًا شديدًا فى نفس الإنسان ؛ إذا كانت مهيأة لها باستعدادها الخاص - وبخاصة فى مراحل التكوين والنشأة ، فاللفتة إلى مثل هذه الطبقة من الكتب فى حياة المازنى مرحلة انتقال من التسلية إلى الجد ؛ ومن اللازم أن تحفر فى نفس المازنى الطلعة مجرى قل أن ينسى ، لأنها مرحلة اكتشاف لقدرات النفس والذهن، وستبدو فى ثنايا هذا الفصل أمداء هذا المجرى وأعماقه ، وإن كانت هذه الأمداء ، وتلك الأعماق لاتنفى هذه الأصالة المقررة سلفًا .

يقول العقاد «كان صديقنا - يقصد الشاعر على شوقى - وصديقه المازنى رحمه الله يقرأ الشريف الرضى . ويعجب به كإعجابه ، وكان أسلوب الشريف ينطبع فى قريحته فيبدو على غير قصد منه فى نظم عباراته وتراكيبه ولكن المازنى كان يقرأ الشريف ويعيد قراءته فى أيام كثرت فيها قراءاته للشعراء المختلفين من الأوربيين فامتزجت آثار هذه القراءات ، ولم تجتمع كلها على النمط الشريفى المعهود» (٣٣) .

فامتزاج آثار هذه القراءات هو الشىء المعهود فى القرائح الإنسانية عند كل الشعراء والأدباء الأصلاء ؛ أما مايبدو من تشابه عند المازنى وغيره ممن يقرأ لهم ، فإن لشاعرنا حالة خاصة تفسر هذا التشابه ، ولانفى لأصالته بسبب ذلك فمن المفروض أن كل شاعر يقرأ ، وعند الإبداع ينبغى أن ينسى آثار ثقافته إلا ماكان من قبيل المعانى العامة الخالدة التى تخص كل جيل وقبيل ، فنسيانها وعدمه سيان ، أما مايطفر إلى كتابات المازنى من آثار من سبقوه فإن لحالته العصبية والذهنية دخلاً فى ذلك كما قلنا آنفًا ، ولايعقل مطلقًا أنه فى حالة الكتابة يفتح ديوان شاعر وينقل منه ؛ لأننا نجد تشابهًا فى القصيدة الواحدة عنده لايقف عند شاعر واحد فضلاً عن قصيدة واحدة لهذا الشاعر أو ذاك ، ولايعقل أن يفتح كل هذه الدواوين وينقل منها ، وإلا فراحته وإراحتنا أولى من هذا كله ، ولكن المازنى يكتب أحيانًا وهو ممتلئ الذهن أو الذاكرة بكلام من سبقوه فيطفر إلى القلم بعض تعبيرات من محفوظه وهو يظن أنها له ، وليس من المعقول ولا المعهود أن يفتح كتابًا لغيره

(٣٣) مقدمة العقاد لديوان على شوقى ، الألف كتاب ، ٩٥٨ .

وينقل منه ويدعى بعد ذلك أن ذاكرته خوانة ، كل هذه المسألة تتم وهو لايدرى ، ومن هنا كان الدكتور محمد أبو الأنوار مبالغًا حين قال : «إن المازنى بطبعه يستفيد بكل شىء استفادة صائبة حتى لو بلغ ذلك حد النقل أحيانًا . . . والمازنى فيما يبدو من ذلك النقر الذى تعجبه الأفكار فيقيد رءوسها أو أسماءها بالعبارات التى قرأها أو بعبارات قريبة منها ثم يطرحها فى موضوعه الذى يعالجه» (٣٤) .

جاءت هذه المبالغة لأن عباراته تشى بأن المازنى قاصد عامد ، ولامعنى لهذا القصد والعمد عند رجل كالمازنى ؛ لأن المسألة تكون فى حالة غير عادية بالنسبة له، وقد سبق أن عالجنا هذه المسألة .

وأعتى حملة واجهت المازنى حملة صديقه عبدالرحمن شكرى ، وسنحاول أن نورد طرفًا من المقال الذى نشره فى مقتطف يناير سنة ١٩١٧ تحت عنوان «واجب أدبى ؛ وانتحال المعانى الشعرية» ، كتب يقول : «إن المودة التى بينى وبين المازنى قديمة . . ومن أجل ذلك لم أعرف كيف يسوغ لى أن أكتب هذا المقال . . . ومثل هذا الواجب ينبغى أن يكون فوق المودة منزلة ، فقد شاع بين الأدباء أن المازنى قد أخذ بعض قصائد كاملة من شعراء الغرب وأفكار متفرقة ، غير أنى لم أتنبه إلى هذه التهمة وأهديت إليه الجزء الثالث من ديوانى علامة على ثقتى ومودتى «ثم أخذ شكرى يسرد عناوين القصائد التى أخذها المازنى ، وقد قام الدكتور محمد سليمان أشرف بتحقيق هذه الأشياء فى رسالته للدكتوراه ، والتى سنعرض لها بعد قليل . . إلى أن ختم شكرى مقاله بقوله : «هذا . . وأؤكد لصديقى المازنى أنى أجله وأوده بالرغم من ذلك وأدعو للقارىء أن يحكم أمصيب أم مخطىء أنا فى إظهار ما أظهرت ، وليس لى أن أعلل هذه المآخذ ، أو أن أتهم المازنى بأنه تعمد أخذها» (٣٥) .

وينبغى أن توضع هذه القضية أولاً فى إطارها التاريخى بملابساته الشخصية ، فهذا المقال كتب والمعركة حامية بين المازنى وشكرى ، والمحافظون وغيرهم يؤججون الضرام بين الصديقين ؛ ولسنا نؤرخ لهذه المعركة الآن ، وإنما يهمنا أن

---

(٣٤) المعارك الأدبية ص١٩٦ .

(٣٥) راجع المقال كله وتفصيلاته فى مقتطف يناير ١٩١٧ .

نضع المقال فى الجو الذى كتب فيه .

وقد رد المازنى على هذه التهمة فى مقدمة الجزء الثانى من ديوانه فقال :

«أما ما قيل إنى سرقته فقصائد بعضها وهو الأقل مطبوع فى الجزء الأول ، والبعض لم يكن قد نشر بعد ، ولست أدرى كيف استحل الناس لأنفسهم أن يجزموا أنى إذا طبعت الجزء الثانى لامحالة منتحل هذه القصائد . . وكلها منشورة فى هذا الجزء منسوبة إلى أصحابها .

أما ما اتهمنا بسرقته مما ورد فى الجزء الأول من ديواننا فقصيدة : «فتى فى سياق الموت» وهى ثمانية أبيات ، ولقد راجعنا قصيدة الشاعر «هود» فوجدنا فى قصيدتنا أبياتًا ليست له ، ونحن ننزل عن القصيدة كلها راضين ، ونبرأ إلى الله من تعمد أخذها والإغارة عليها . . .» إلى أن يقول :

«ولو أن ما أخذ علينا فى الجزء الأول ومانبهنا القراء إليه من تلقاء أنفسنا حذف لما أنقص ذلك من قيمة شعرنا فإن فى ديواننا الأول نحو ألف بيت وليس ما أخذ علينا خيرها . ولئن كان هذا دليلاً على شىء فهو دليل على سعة الاطلاع وسرعة النسيان وهو مايعرفه عنا إخواننا جميعًا هذا . . ولايسعنا إلا نشكر لصديقنا شكرى أن نبهنا إلى مآخذ شعرنا والسلام» .

وقد علق على كلمة المازنى أحمد زكى أبوشادى بقوله : «ولكن اقتدار المازنى المشهور به ضمين بفوزه مهما عدت له العثرات ، وما الابتكار بعزيز على خاطره الفياض بالآيات البينات ، ومهما شابهت نغماته أنغام غيره ففضله فى النقل عظيم، وفضله فى الاعتراف بالحق عند تبينه أعظم ؛ وهو إذا احترس فى المستقبل من أغاليط تعودها أضاف إلى حسناته حسنات خالصة ، وأنصف نفسها وأهل حزبه والأدب والعلم» (٣٦) .

وينبغى أن نعرف أن لأبى شادى وجماعه يدا فى تعميق هوة الخلاف بين أصحاب الاتجاه التجديدى الذهنى ، وكانوا يجنحون مع شكرى ضد زميليه ولكن أبا شادى يحاول فى كتابته أن يكون «دبلوماسيًا» - إن صح التعبير - ومما يؤكد

(٣٦) مقتطف يناير ، ١٩١٧ .

مانذهب إليه إثباته للتهمة ومحاولة تغليفها بالمجاملة «ففضله فى النقل عظيم وفضله فى الاعتراف بالحق أعظم «وقوله فى مقالة أخرى : «ويلوح لى أن الأسباب التى دفعت شكرى أفندى إلى الجهر بتلك الملاحظات غيرته على حسن سمعة صديقه المازنى ، الذى أبدع أيما إبداع فى ديوانه الصغير باكورة ثماره الشهية، وظهر بين أقطاب الشعر الحديث الذين تتكسر فوق دروعهم نبال الجامدين»(٣٧) .

ونستطيع أن نقول إن هذه أقوى التهم التى وجهت للمازنى ، ونحن نستطيع أن نستعير كلمته فى الدفاع عن نفسه لنعقب بها على ماتقدم من هذه التهم القوية وهى قوله : «ولو أن ما أخذ علينا فى الجزء الأول ومانبهنا إليه القراء من تلقاء أنفسنا حذف لما أنقص ذلك من قيمة شعرنا» .

وخير من عالج هذه القضية الدكتور سليمان أشرف فى رسالته للدكتوراه (٣٨) ؛ لأنه تتبع مظان هذه التهم وقارن بينها مقارنة جادة مشكورة أعانه على ذلك إجادته للإنجليزية ، لولا أن عدم تمكنه من العربية أوقعه فى ركاكات ماكان ليقع فيها لو أجادها ، ولسنا مطالبين بإيراد هذه النصوص هنا والتعقيب عليها ، وإلا انصرف الجهد إلى تعليقات وإيراد هوامش لاتخدم البحث ، والبحوث يعين بعضها بعضًا، وسنحاول أن نأتى بنموذج واحد ونعقب عليه بما يكشف عن طريقة تناولنا وتناول أشرف ، وقد عرضنا الترجمة على صديقنا الحسانى عبدالله ، فأشار باعتمادها والثقة بها إلى حد كبير لولا أن له ملاحظات يسيرة .

اتهم المازنى بأخذه قصيدته «فتى فى سياق الموت» من الشاعر توماس هود ، وهذه قصيدة هود كما ترجمها محمد أشرف : «رأيناها تتنفس فى الليل (٣٩) ، وكانت أنفاسها ناعمة قصيرة ، كأن موج الحياة فى صدرها يعلو وينخفض جيئة وذهابًا ، وتكلمنا عندها بهدوء ، وتحركنا ببطء كأنما أعرناها نصف قوانا لتضيف فى حياتها ، آمالنا كذبت مخاوفنا ، كذبت مخاوفنا آمالنا ، ظنناها ميتة وهى

---

(٣٧) مقتطف مارس ، ١١١٧ .

(٣٨) عنوانها «ثائر الشعر المصرى بالشعر الإنجليزى» ، وصاحبها هندى .

(٣٩) يقترح الحسانى : «كنا نرقب أنفاسها طوال الليل» وهى أدق لأنه لامعنى لرؤيتها تتنفس فى الليل ، وإنما المهم مراقبة الأنفاس طوال الليل وهى تجود بنفسها .

نائمة وهى تجود بنفسها ، وعندما أتى الصباح ضئيلاً وحزينًا وأتى البرد مع أول المطر غمض جفناها «الهادئان» وكانت فى صبح آخر غير صبحنا» (٤٠) .

وهذه قصيدة المازنى :

نعد أنفاسه ونحسبها ... والليل فيه الظلام يلتطم
إذا خروج الحياة أجهده ... تساقطت عن جبينه الديم
صدر كصدر الخضم مضطرب ... جحافل الموت فيه تزدحم
إن قام ملنا له بمسمعنا ... أو نام خفت بوطئنا القدم
يرتاع من طول نومه الأمل ... ويشتكيه الرخاء والسأم
كأنما الخوف من تردده ... خيل لها من رجائنا لجم
خلناه قد مات وهو فى سنة ... ونائم الجفن وهو مختترم
قد قلصت ثغره منيته ... كأنه للحمام يبتسم (٤١)

لاشك فى أن هنا تشابهًا بين القصيدتين مبعثه إعجاب المازنى بتوماس هود فى هذه القصيدة ، وتغلغل هذه التجربة فى وجدان المازنى ، ليس التجربة فقط بل التعبير عنها أيضًا ، ولولا الإحساس المشترك أو المتشابه بين الشاعرين ، وإحساس المازنى بأنه مسبوق بهذا التعبير عند هود لما كان ثمة التفات من جانب صاحبنا ، ولكنهما تشابها ليفترقا وليبقى لكل منهما وجهته فى النظر والتعبير .

جو الفخامة المتسقة تشعر به عند المازنى - فالتطام الظلام فى الليل وتساقط الديم عن الجبين ، وجحافل الموت التى تزدحم فى صدر كصدر الخضم - والخيل التى لها من الرجاء لجم ، كل هذه التعابير متسقة مع الجو المرهوب الذى يرسمه المازنى ، رغم أن الدكتور أشرف يرى فى مثلها كلمات صعبة لايوجد مثلها عند هود ، ونحسب أن المقارنة بين صعوبة الكلمات وسهولتها غير وارد لاختلاف اللغة. وقد رأى أشرف أن المازنى له بعض المعانى التى يفترق بها عن هود مثل صورة الجهد ، الذى يعانيه الفتى بتساقط العرق من جبينه ، ولم تعجبه «مخترم»

(٤٠) تأثر الشعر المصرى بالشعر الإنجليزى ، ص ص٢١٦ ، ٢١٧ .
(٤١) ديوانه ، ص٣٤ .

وقال إنهـا قليلة الاستعـمال للموت وقـد اضطرت القافيـة المازنى لايرادها ولذلك شرحهـا بالهامش ، ونعتـقد أن السهولة والصـعوبة أمر نسبى ولأشـرف العذر فى رؤية هذه الصعوبات ، ولـكن السياق يلقى بعض الضوء الذى يوضـحها - برغم الصعوبـة المزعومة - ونحن نرى أنها دقـيقة جداً فى مـوضعها ، وأن صـيغة اسم المفعول أعطتها ظلالاً مضيئة - إن صح التعبير - ونرى أيضًا أن البيت الأخير عند المازنى لايوجد عند هود .

قـد قـلصت ثغـره منيـتـه كـأنـه للحـمـام يبـتـسم

ولكن بيته :

يرتـاع من طـول نومـــه الأمل ويشـتكيـه الرخـاء والسـأم

يحتـاج إلى تعليق ، فالشطر الأول مـختل الوزن عند كلمـة (الأمل) التى يلزم تنوينها أو الوقوف عليـها بالسكون لأنها عروض البيت ، ولايجوز الوقـوف عليها بالحركة إلا فى حالة «التصريع» وهو غير موجود فى هذا البيت .

والشطر الثانى لايفضى بمـعناه لركاكة فى العبارة ، فـهو يريد أن يقول - ظنا - إن الرخاء والسـأم - وهما سبيـلان إلى النوم الطويل - اشتكيا منه كـما أن الأمل ارتاع من طول نومه ، وعلـى هذا يكون الشطر الثانى لايضيـف شيئًـا بعد الشطر الأول ، فضلاً عن أن معنى الشطر الثانى مستسر غامض لم نهتد إليه إلا بعد عناء طويل .

وقد نتـفق أو نختلف عـلى مدى هذا التـشابه وذلك الاختـلاف ، لولا أن لنا تساؤلات ، فقد عثرنا فى قراءتنا لديوان الشـريف على تشابه بين أبيات فى قصيدة المازنى وبعض أبيات عند الشريف .

يقول الشريف :

إن قـام خـفت به شـــمـائله أوسـار خـفت بوطئـه الـقـدم

ويقول المازنى :

إن قـــام ملنـا له بمســـمــعنا أو نام خــفت بوطـئنا القـــدم

ويقول الشريف :

صــدر كصــدر الحســام ليس له ســـر بنضـح الدمـــاء منكـتم

ويقول المازنى :

صدر كـصدر الخـصم مضطرب جــحــافل الموت فــيــه تزدحم

ويقول الشريف :

كــأنمـا الدجن فى تزاحـــمـــه خـــيل لهـــا من بروقـــه لجم

ويقول المازنى :

كـــأنما الخـــوف مـن تردده خــيـل لهـــا مـن رجـائنـا لجم

ويقول الشريف :

قلص عــن ثغــره مــضــاحكه كــأنه فى العـــبوس يـبـتــسم

ويقول المازنى :

قــد قلصت ثـغــره منيـتـــه كــأنه للحـــمـــام يـبـتـــسم

ويقول الشريف :

إذا خـــمـــار الظـلام لثـمـــه تسـاقطت عن قـمـيصـه التـهم

ويقول المازنى :

إذا خـــروج الحــيـــاة أجـهــده تسـاقـطت عن جـبـينه الديم

ويقول الشريف :

مـــاضج من طـول مطلـه أمل ولا اشـتكته الـعـهـود والذمم

obeikandi.com

ويقول المازنى :

يرتـاع من طـول نومـــــه الأمل ويشـتكيــه الرخـاء والسـأم(٤٢)

هذا التشابه بطـبيعة الحال يكثـر أو يتضاءل من بيت إلى آخر فـضلاً عن أننا قد عثرنا على تشابه أيضًا بين وصف هذا الموقف لدى هود والمازنى ،وأرتزيبا شف فى روايته «ابن الـطبيعـة» التى ترجمـها المازنى بهـذا العنوان ، ولابأس من إيراد هذا المقطع - معتذرين عن طوله - والطول هنا من مستلزمات القصة ، ويفضلها الشعر بالتركيز .

«وكان يتنفس ببطء وجهد وما أبعـده عن سمينوف الذى يعرفونه والواقع أنه لم يكن كالأحـياء ، وقد ظلت مـعارف وجهـه وأوصاله ، ولكنهـا صارت متـصلبة مشدودة فظيعة المنظر ، وكأن الذى يصب الحياة والحـركة فى أجسام الآدميين غيره لم يعد له وجود ، وكأن أمرًا مرعبًا يجـرى بسرعة وتكتم فى هذا الجسد الجامد - أمرًا مهمًا لاسبيل إلى إرجائـه ، وكأنما لم يبق له من الحياة إلا تلك القوة المشتغلة بهذا العمل المتفـرغة لإتمامه ، باهتمام حاد لايناله التفسـير . وكان المصباح المدلى من السـقف يصب ضوءه على وجـه ذلك المائت وكل من فى الغرفـة يتئـره النظر ويعلق أنفاسه كأنما يخشى أن يزعج شيئًـا رهيبًا ، فكانت أنفاس المريض المحشرجة المخنوقة - وسط هذا السكون - واضـحة وضوحًا مـرعبًا وظل سميـنوف جامدًا يتنفس كما كان ، وكان صـوت صاحبه المرتل ضخمًا خشنًا ثقـيلاً فصار الصوتان المختلفـان مؤلمين فى تنافرهما ، وهمـا يتصاعدان إلى السـقف العالى ، ولم يكد التـرتيل يبـدأ حتى اتجـهت كل العـيـون فى فزع إلى ذلـك الذى يموت ، وكـان توفيكوف أدنى إليـه فخيل إليه أن جفـون سمينوف اختلجت قليـلاً كأنما تحرك من تحتها الإنـسانان المكفوفان فى اتجاه الغناء ، أما الآخـرون فلم يروا إلا أن سمينوف بقى بلاحراك كمـا كان من قبل ، وكان سمينـوف متصلبًا جامدًا كـالعهد به ، ثم طاف بأذهان الجميع فجأة خاطر لاسبيل إلى مـعالجته ونفيه «أما لو أنه انتهى الأمر

---

(٤٢) كل أبيـات الشـريف فى ديوانه ، جـ٢ ، ص٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، دار سـادر ودار بيـروت ١٩٦١ وأبيات المازنى فى ديوانه ص٢٤ .. ولعل المازنى فى تتبعه للشريف وقع فى هذا الخطأ العروضى ، كما فى بيته الأخير هنا حيث أراد المحافظة على كلمة «الأمل» .

بسرعة أو أن سمينوف . . . يعجل بالموت» . ولكن الخوف والخجل دفعاهم إلى كتمان هذه الرغبة والاكتفاء بتبادل النظرات الضعيفة ، ثم حرك سمينوف ببطء وبجهد جاهد شفتيه المصمغتين وتقبض وجهه كأنه يبتسم ، وسمع النظارة صوتًا أجوف منكرًا يخرج من أعماق صدره - كأنه خارج من نعش - يقول : «أيها الشيخ الأحمق» وعيناه تنظران شزرًا إلى القسيس وشاعت الرعدة فى جسمه ودار حملاقاه كالمجنونين فى كهفيهما وتمطى ، وسمعوا جميعًا كلماته الثلاث ولكن لم يتحرك منهم أحد ؛ وغاضت - لحظة - من وجه القسيس السمين الرطب آية الحزن ، وتلفت حوله فى قلق غير أن لحظه أخطأ كل عين وكان سانين وحده يبتسم ، وحرك سمينوف شفتيه ثانيًا غير أنه لم يخرج منهما صوت ، واسترخى أحد شاربيه الخفيفين ، وتمطى مرة أخرى وصار فى رأى العين أطول وأفظع ، وانقطع كل صوت وكل حركة ولم يبك أحد الآن . . فقد كان نزول الموت أهول من ترنيقه ، وكأنما كان من الغريب المعجب أن ينتهى منظر مفتت بمثل تلك السرعة والبساطة ، فظلوا برهة وقوفًا إلى السرير يتأملون معارف وجهه الميتة الناتئة ، وكأنهم يتوقعون أن يحدث شىء جديد وراحوا لكى ينبهوا فى نفوسهم الإحساس بالهول والمرثية يرقبون نوفيكوف وهو يغمض أجفان الميت ويضع له يديه على صدره ، ثم خرجوا فى سكون وحذر وكانت المصابيح قد أضيئت فى الممر ، وبدا لهم كل شىء مألوفًا فخلصت أنفاسهم» (٤٣) .

إن من الاعتساف فى الأحكام أن نقول إن المازنى يفتح ديوان هود وديوان الشريف وينقل منهما ؛ لأن من الأفضل له ولنا أن يريح نفسه ويريحنا من هذا العناء الذى لاطائل تحته بدلاً من جريرة الاتهام التى تلاحقه ، ثم إن التشابه بين هود (١٧٩٩ - ١٨٤٥) وأرتزيباشف (١٨٧٨ - ١٩٢٧) فى التناول إلى حد ما ألا يدعونا إلى التوقف الطويل قبل أن نتهم ؛ وليست هذه الدعوة إلى التوقف للدفاع عن المازنى بقدر ما هى مطالبة بتفكير سليم قبل الحكم . ثم ألايحق لنا أن نتساءل بعد هذه الدورة المضنية فى الآداب المختلفة ، والتى محصلها تشابهات ليس غير ، والتى يجوز فيها توارد الخواطر أو اتفاقات أمزجة أن وحدة موضوع تثير أفكارًا

(٤٣) ابن الطبيعة ارتزيباشف المازنى ، ص٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ - دار الشعب ١٩٧٠ .

متشابهـة أو خون ذاكرة أو ماشابه ذلك من احتمالات ومـعاذير ، يحق أن نتساءل عن جدوى هذا كله ، ومدى الحصيلة التى يجنيها النقد الأدبى فى تحليل النصوص وبيان القيمة الفنية لها .

«إن مايصنعه مـؤرخو الأدب المقارن فى هذه المسألة - على صعـوبته - محض تكديس للمعلومات ضعيف الصلة بالنقـد الأدبى ، إنهم كما يقول ويليك يكومون كتلة هائلة من التقابلات والتشابهات والتطابقات أحيانًا ، ولكنهم نادرًا مايسألون ما الذى يفترض أن تبينه هـذه العلاقات إلا أن كاتبًا ما ربما يكون قد عـرف كاتبًا آخر وقرأ له ، ولكن الأعمال الفنيـة ليست مجرد تجميعات للمـصادر والتأثيرات . . . إنها وحـدات قائمة برأسهـا لاتعود المواد الخام التى يؤتى بها من مكان آخـر حين تدخلها مادة جامدة ، فهى تستحيل بالتمثيل إلى بناء جديد» (٤٤) .

فهذه الاسـتحالة إلى بناء جديد هو ما نراه فى الأعـمال التى اتهم بها المازنى ، إننا نقرأ قصيدة «فتى فى سـياق الموت» مثلاً ، فلاتحس أن هذا الكلام نبت فى لغة غير العربية ، ولم يفصل إلا على قد المازنى وما يوجد من تشابه إنما هو من تشابه الأمزجة حين تتـجه لموضوع واحد ، ويحس المتأخر حـين قراءته للسابق أنه - أى المتأخـر - أولى بهذه الأفكار والعـبارات من سابقـه ، ثم بما اجتمـع للمازنى من صفـات خاصة ألمعنا إلـيها فـيما سـبق سرى هذا التشـابه فى المعنى والصيـاغة ، ولاتثـريب على المازنى لأنه مـثر بما يـملكه من شىء وفـير ، ولاتعـتـريه متـربة ولاخصاصة .

ويبقى القول الخالد وهو هب أن المازنى حـذفنا من ديوانه كل هذه التشابهات - وهذا غبن للحقيقة قبل المازنى - فإننا لن نحـذف أفضل ماكتب ، ويبقى له مدخر يخول له مكانًا متفردًا بين أصلاء الشعراء .

وقد اختصت المقـارنات بين المازنى وشعراء الغرب بدراسات كثيـرة أكثرها فطير لايخـضع للتحليل والتـدقيق كـمـا رأينا ، ولكن أهم هذه الدراسات هى رسـالة الدكتور مـحمد أشرف والتى نوافق بصـفة عامة على نتـائجها فيمـا يتصل بالمازنى

(٤٤) فلسفة الجمال عند العقاد ، الحسانى عبدالله ، ص ص٥١ ، ٥٢ .

مؤمنين بأن البحوث يخدم بعضها البعض .

ويبقى جانب مهم لم يحظ بما حظيت به الجوانب الأخرى ونعنى به التشابهات بين المازنى وشعراء العربية ، وقد نبه إلى هذا بعض الدارسين كما رأينا سابقًا - ولكنهم لم يأتوا بشىء سوى إشارات عامة ضررها أكبر من فائدتها .

ومعظم هذه التشابهات وقعت بين المازنى والشريف الرضى ، ولاغرو فديوان الشريف من الكتب الجادة الأولى التى وقعت فى يد المازنى فى مرحلة التكوين ، ولذانرى أن نخص هذه التشابهات بحديث مستقل ، وقد راعينا الدقة فى رصدها متوخينها ما أمكن :

بين المازنى والشريف:

يخيل إلينا لو أن المازنى عاش فى عصر الشريف لكان مثله فى صياغته الجزلة الفخمة - وإن كانت الجزالة والفخامة لم تفته حتى فى العصر الحديث ، على مابين الشخصيتين من تباين ، وقد أعجب المازنى بالشريف إعجابًا شديداً . وترجم هذا الإعجاب عن نفسه فيما استظهره له المازنى لأن عقله «يشبه الصمغ يمسك بكل شىء ، ولكنه لايبقى على شىء» (٤٥) .

ولكن طفا على سطح الذاكرة ماقر فيها من قراءاته للشريف ، وأدمجها فى قصائده سواء تشابهت القوافى أم اختلفت ، وقد اقتضى هذا قراءة الشريف - على ضخامته - قراءة فاحصة خرجنا منها بهذه الحصيلة التى عثرنا عليها - وسنحاول أن نورد نصوص الشريف أولا ثم نعقب بنصوص المازنى وسيبدو من مجرد القراءة العابرة كيف كان المازنى ينظر إلى الشريف كما يقول القدماء .

للشريف رجزية بائية نقتطف منها الأبيات المتشابهة فقط متجاوزين ماعداها ، يقول :

بمعجل ينتزع الأطنابا ... يوطى الحمى ويهتك الحجابا

واستدرج العبيد والأربابا ... سيل ردى قد ملأ الشعابا

---

(٤٥) دراسات فى الأدب والنقد ، ص٣٤ معاوية محمد نور ، ط أولى ١٩٨٠ ، قسم التأليف والنشر ، جامعة الخرطوم .

وجن مـوجـا وطغى عـبـابا	قـارعـنا وانتـزع اللبـابا
أعـجب وأخلق أن تـرى عـجـابا	يبـلد الأفـهـام والألبـابا
لاتنكر الموت لهـا شـرابا	ولاتعـاف الـصـبـر المذابا
منجـفـلا مع الردى منجـابا	فلم سننت الصارم القرضـابا
وفـرق الجـيـران والأحـبـابا	وبزنـا أرواحنا اغـتـصـابا
لانـتـرجى منـهم إيـابـا	إذا دعـوا لـم يرجـعـوا جـوابا
ولبـسـوا الجنـدل والظـرابا	لقـدر مـاعـمـروا الخـرابا
ياغـصـنا طال ، وفـرعـا طابا	لما ذوى أودعـتـه التـرابا
أراب مـن يومـك مـا أرابـا	لازلت أستسقى لك السحـابا

لاتجعـلنه ديـدنـا ودابـا[٤٦]

وهذه الشطرات والأبيات لاينتظر منها أن تكون مرتبة وتحمل فكرة معينة ؛ لأنها مختارة دون ترتيب من قصيدة طويلة . ووكدنا فقط رصد التشابهات مع شاعرنا .

وللمازنى رجزية بائية أيضًا بعنوان «حلم اليقظة - الحروب» ، اتفق مع الشريف فيما يلى :

سيل همومى قـد طغـا عـبـابا	وجن حـتى مـلأ الـشـعـابا
ليـت ، وتحلى الصـبـر المذابا	يبلـد الإحـسـاس والألبـابا
مثل الصـدى قـد عـمـر الخـرابا	مسـتـهـولا ينتزع الصـوابا
يهـتك مـن فـؤادك الحـجـابا	وفـرق الخـلان والأحـبـابا
ليت الـذي سن لنا القـرضـابا	فـسـاقنا إلـى الردى أغـصـابا

(٤٦) ديوان الشريف جـ١ ، ص١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .

مـن ذاهـب لايـرتجـى إيابـا   وسـائل لايحـفل الجـوابا

يلبس من دمـائه جلبـابا   يبكى ويستبكى لك السحابا

لاتجعـلن ظلـم الـعباد دابـا (٤٧)

لانستطيع إلا أن نقول إن المازنى كان يتثر النظر إلى الشريف ، ربما ساعد توحد البحر والقافية ؛ وتوحد الموضوع - إلى حد ما ، فقصيدة الشريف فى الرثاء ، وقصيدة المازنى فى الحزن على مفقودى الحروب وصرعاها وضحاياها المسوقين - برغم أنوفهم وأنوف ذويهم - إلى خوض حروب لاناقة لهم فيها ولاجمل - كما يقولون - نقول : ربما ساعد كل هذا التوحد على سريان هذا التشابه بين الشاعرين حتى إن المازنى استخدم بعض الألفاظ الغريبة ، التى كانت مناسبة لعصر الشريف والتى لاتلائم أذواقنا فى العصر الحديث . ولاحاجة بنا إلى إبانة هذا التشابه . . فهو واضح بنفسه من قراءة الأبيات لدى كل من الشاعرين .

ويقول الشريف :

لاتطلب الغاية القصوى فتحرمها   فإن بعض طلاب الربح خسران

ميلوا إلى السلم إن السلم واسعة   واستوضحوا الحق إن الحق عريان(٤٨)

وللمازنى قصيدة مطولة يعارض فيها ابن الرومى فى قصيدته التى يمدح بها إسماعيل بن بلبل - وهى من جيد شعره - وعنوان قصيدة المازنى «مناجاة الهاجر» وهناك تشابه فى روح الصياغة والنفس بين المازنى وابن الرومى ؛ وله حديث خاص سيأتى - يقول المازنى فى قصيدته هذه مشابهًا للشريف :

ومـا أقل الذي أبغى وأيسـره   لو كنت تنصف إن الحق عريان

كلاهـما أبدا ربح لصاحبـه   لاغنم فيه وبعض الربح خسران(٤٩)

---

(٤٧) ديوان المازنى ، ص٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ .
(٤٨) ديوانه جـ٢ ، ص ص٤٥٠ ، ٤٥٢ .
(٤٩) ديوانه ، ص ص٩٧ ، ٩٨ .

ويقول الشريف فى قصيدة رثاء ، نسوق الأبيات بلا ترتيب :

أي خطب راخي قواك ، وقد كنت جديلا على الخطوب ممرا
كلما زيد غمه زاد صبرا ضرم الزند ، كلما لز أورى
أرمضته هواجر الخطب ، فانقاد حمول الأذى وماقال هجرا
أجد القلب بعد لومى أسخى فكأن اللاحى بما قال أغرى
وقعت موقع العوان من الدهر ، وإن كانت الرزية بكرا
كلما قصر الحيا كان ماء العين أبقى صوبا ، وأعظم غزرا(٥٠)

ويقول المازنى على البحر والروى نفسيهما ، يرد على قصيدة تعزية فى ابنة له توفيت أرسلها - أى القصيدة - إليه الشاعر المرحوم عبدالرحمن صدقى :

أجد الدمع بعد نصحك أجرى فكأن التعذال للدمع أجرى
لست أبكى لفقدها - علم الله ، وإن كانت المصيبة بكرا
غير أن الهموم يفصح عنها الدمع ، كالزند كلما لز أورى -
أرمضتني الخطوب فى فدفد العيش ولم ألف غير دمعى قطرا
ما علي من راخت قواه البلايا من ملام إن لم تجده ممرا
ليس بدعا على توقى الرزايا أن تبيت الشئون أعظم غزرا (٥١)

ويقول الشريف :

كلما قبلت زهرتها — خلت أن القطر غيران
قدت خيل اللثم أصرفها — حيث ذاك الخد ميدان
لي غدير من مقبله — ومن الصدغين بستان
كيف لاتبلى غلائله — وهو بدر ، وهى كتان (٥٢)

(٥٠) ديوانه جـ١ ، ص ص٥٠٠ ، ٥٠١ .
(٥١) ديوانه ، ص١٩٩ .
(٥٢) ديوانه جـ٢ ، ص ص٥٠٤ ، ٥٠٥ .

obeikandi.com

ويقول المازنى :

لى كئوس من مراشفه ومن الأطيار ندمان
كلما قبلت وجنته خلت أن الورد خجلان
كيف لاتذوى غلالته وهى للأعين ميدان (٥٣)

ويقول الشريف :

عدد النجوم إذا دعى بهم يتزاحمون تزاحم الشعر
حتى التقى بالشمس مغمده فى قعر منقطع من البحر
لو لم يعارضه الحمام إذا لمضى على غلوائه يجرى (٥٤)

ويقول المازنى فى قصيدة . . مترجم بالحرف عن «موريس» ، اسمها «النهر المتعب» .

ماض على غلوائه يجرى أبدا إلى بحر بلا عبر
مترقرق لاشىء يحبسه متزاحم كتزاحم الشعر
ورمى بكل غير متئد فى قعر بحر هائل القعر (٥٥)

ويقول الشريف :

قالوا أطاع وقيد فى شطن الردى أيد النون ملكت أى قياد
من مصعب لو لم يقده إلهه بقضائه ما كان بالمنقاد(٥٦)

ويقول المازنى :

شطن المنون ملكت أى قياد من مصعب ماكان بالمنقاد (٥٧)

(٥٣) ديوانه ، ص٢٧ .
(٥٤) ديوانه جـ١ ، ص٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ .
(٥٥) ديوانه ، ١٢٤ .
(٥٦) ديوانه جـ١ ، ص٣٨١ .
(٥٧) ديوانه ، ص٢٥٠ .

ويقول الشريف :

طأطأت لحظ العين حين خطا ... والبين يرمقنى ويرمقه
واللثم يركض فى سوالفه ... وتكاد خيل الدمع تسبقه
الجود ينهاه ويأمره ... والدهر يرجوه ويفرقه
أبدت خبى المجد طلعته ... وأذاع سر الفضل منطقه (٥٨)

يقول المازنى :

ودعته والليل يخفرنا ... والبدر يرمقنى ويرمقه
والماء يجرى فى تدفقه ... ويكاد ماء العين يسبقه
والدل ينهاه تمنعه ... والحب يأمره ترفقه
لما رأيت الليل زايلنا ... وأذاع سر الصبح مشرقه
طأطأت لا أرنو لبهجته ... فالحسن يطغى الصب رونقه (٥٩)

وقد وردت بعض الكلمات فى قصيدة المازنى ، وهى موجودة عند الشريف مثل ودعته والماء يطغيه ترقرقه ، لما لحظت الدهر زايله ، والسهم يشليه مفوقه «وهذه الكلمات واردة عند المازنى ، فى قصيدته المشار إليها آنفًا» .

يقول الشريف :

واعجبى للزمان كيف نبا ... واعجب أن أقول واعجبى
أما فتى ناضر الصبا كأخى ... عندى أو زائد المدى كأبى
ولوعة تحطم الضلوع .. إذا ... ذكرت قرب اللقاء عن كثب
إن قطع الموت بيننا فلقد ... عشنا ، وماحبلنا بمنقضب
كم مجلس صبحته ألسننا ... تفض فيه لطائم الأدب

(٥٨) ديوانه جـ٢ ، ص٥٤ .

(٥٩) ديوانه ص٤٥ .. ومن الإنصاف أن نذكر أن أول من نبه على هذا التشابه أحد النقاد ، وقد وقع مقاله (م. ع. الأول) فى السفور ١٤ مارس ١٩١٨ ، وماكنا اطلعنا على هذه الإشارة قبل اهتدائنا إلى هذا التشابه والإشارة فى أدب المازنى ، ص ص١٠١ ، ١٠٢ .

كالبارد العذب روقته صبا الفجر ، أو الظلم زين بالشنب
غاض غدير الكلام مابقى الدهر ، وقرت شقاشق الخطب
كنت قرينى ولست من لدنى كنت نسيبى ولست من نسبى[٦٠]

ويقول المازنى :

أعطشنى الناس بعد أن «رويوا» من مستهل الوفاء منسكبه
مالى وما للزمان واعجبى واعجب أن يكف عن عجبه
غاض غدير الوفاء فى زمن فاض بما لايجف من نوبه
أما فتى صادق الهوى كأخى شكرى يرد الزمان عن نوبه
خلائق سهلة موطأة كالبارد العذب غب منسكبه
كم مجلس والوداد ثالثنا والراح تجلى كالحق من حجبه
ذاك قرينى وليس من رحمى وهو نسيبى ولست من نسبه[٦١]

ويقول الشريف :

فاتك السرب ومازودت غير الحسرات
نتشاكى ما عنانا بكلام العبرات
كم نأى بالنفر عنا من غزال أو مهاة
آه من جيد إلي الدار كثير اللفتات
غرست عندى غرس الشوق ممرور الجناة
وغرام غير ماض بلقاء غير آت
وزمان نائم العذال مأمون الوشاة [٦٢]

ويقول المازنى :

(٦٠) ديوانه جـ ١ ، ص١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .
(٦١) ديوانه ، ص ص٨٣ ، ٨٤ .
(٦٢) ديوانه جـ١ ، ص٢١٨ .

كل يوم لى شكاة بكلام العبرات
أطمع القلب ومازود غير الحسرات
غرس الوجد ، وأجنى الشوق ممرور الجناة
نافرا وهو قريب وهو جم اللفتات
واهنأوا أنتم بقرب من غزال أو مهاة
آة من قلب إلي الحسن كثير الصبوات
فى زمان يقظ الآلام موفور الأذاة
معرضا فى غير صد دانيا غير مؤات(٦٣)

ويقول الشريف :

فى كل يوم أكر الطرف ملتفتا وراء نجم من الأقران منصاع
أستودع الأرض خلانى لتحفظهم لقد وثقت إلى هوجاء مضياع(٦٤)

ويقول المازنى :

ياشاعر النفس كم أبكاك مصرعها لقد بكيت على خرقاء مضياع
إنا شبيهان فى شجو وفى ظلع وراء نجم من الأحلام لماع(٦٥)

يراعى أن ثمة تشابهات فى قوافى كل من هاتين القصيدتين ؛ مما يشعر أن المازنى كان ينظم قصيدته وهو ممتلئ النفس بكلام الشريف ، أو على الأقل كان قد فرغ من قراءة قصيدة الشريف قبل نظمه قصيدته بقليل .

ونلمح أن ماسقناه من تشابهات بينه وبين الشريف مما تتحد فيه القافية والوزن الشعرى ؛ ولكن هناك بعض تشابهات أخر ، مما تختلف فيه القافية أو يختلف البحر .

(٦٣) ديوانه ، ص١٢٩ .
(٦٤) ديوانه جـ١ ، ص ص٦٢٩ ، ٦٣٠ .
(٦٥) ديوانه ، ص٧٥ .

يقول الشريف :

أحبك بالطبع البعيد من الحجى وأقلاك بالعقل البرىء من الخبل[٦٦]

ويقول المازنى :

هويتك بالقلب البرىء من الحجى وإنى بالعقل السليم لهاجر[٦٧]

ويقول الشريف :

قدرت منها بلا رقبى ولاحذر على الذى نام عن ليلى ولم أنم[٦٨]

ويقول المازنى :

إلى الذى نام عن ليلى وأسهرنى ومن إليه على الأيام تحنانى[٦٩]

ويقول الشريف :

تعريسة بين رملى عالج ضمنت بل الغليل لقلب الموجع الضمن

شوق ألم وماشوقى إلى أحد سوى الذى نام عن ليلى وأيقظنى[٧٠]

ويقول المازنى :

ياقرة العينين ياسكنى بلل غليل الموجع الضمن[٧١]

يقول الشريف :

مضى زمن التمازج والتدانى وذا زمن التزايل والتنافى

لئن أعلى بناءكم اصطناعى فسوف يثل عرشكم انحرافى[٧٢]

---

(٦٦) ديوانه جـ٢ ، ص : ٢٢٥ .
(٦٧) ديوانه ، ص١٤٣ .
(٦٨) ديوانه جـ٢ ، ص٢٧٤ .
(٦٩) إهداء الجزء الأول .
(٧٠) ديوانه جـ٢ ، ص٥٤١ .
(٧١) ديوانه ، ص٧٣ .
(٧٢) ديوانه جـ٢ ، ص١٦ .

ويقول المازنى :

مضى زمن التسامح والتغاضى وذا زمن الترامى والتحدى

لئن أعلى خسيستهم سكوتى فسوف يحطها بدئى وعودى[٧٣]

ويقول الشريف :

خلى غبار المدى لنا ومضى يطلب قوت العيون منقطعه[٧٤]

ويقول المازنى :

خلى غبار الأسى لنا ومضى عام بغير الأهوال لم يدر[٧٥]

وقد أخذ المازنى عنوان قصيدته «هيهات بابل من نجد» فى ديوانه ص٨١ من بيت للشريف ، يقول فيه :

هيهات بابل من نجد لقد بعدت على المطى مرامى ذلك البين [٧٦] .

ذلك ما استطعنا العثور عليه فى ديوان الشريف ، ولاشك فى أن المازنى مؤاخذ على كل ذلك ؛ وليس معنى المؤاخذة مناقضة ماسبق أن قدمناه من مسوغات لهذه التشابهات ، ولكن يبقى بعض التساؤلات وبخاصة إدماجه بين أكثر من شاعر كما فى قصيدته «فتى فى سياق الموت» . . ففيها من هود والشريف وبعض أوصاف من أرتزبياشف . وكما فى قصيدته التى ترجمها - كما يقول - بالحرف عن موريس ، واسمها النهر المتعب ، ففيها أيضًا تشابهات مع الشريف ، كل هذه التساؤلات تثار ولابد لها من إجابة ، ويحق للدارس أن يتريث كثيرًا فلا ينسب التأثر لواحد دون الآخر ؛ لأن التشابه حاصل بين أكثر من واحد ، ولابد أن التقاء الأمزجة وبعض العوارض الأخرى التى تحدثنا عنها نقف وراء هذه الظاهرة .

وتبقى رغم هذا أصالة المازنى لاريب فيها عندنا ؛ لأننا بحذف التشابهات لانحذف شيئًا كثيرًا ، ولأن بعض هذه التشابهات مما تقع عليه القرائح إذ هى من

---

(٧٣) ديوانه ، ص٣٣ .
(٧٤) ديوانه جـ١ ، ص٦٤٣ .
(٧٥) ديوانه ، ص٢٠٩ .
(٧٦) ديوانه جـ٢ ، ص٤٤٦ .

المعانى العـامة مثل «إلى الذى نام عن ليلى وأسهـرنى» ،ويكفى أن يكون للمازنى ألف بيت فقط لتظل له مكانته الشعرية الأصـيلة ، ونحن نؤمن بالمختارات الشعرية لشاعر واحد أو أكـثر ، فإذا خلص لشاعر ألف بيت فهو عندنا شـاعر يستحق هذا اللقب ويستحق من أجل هذا أن يكتب عنه ، والمازنى قمـين بهذه المنزلة فى الشعر الحديث (٧٧) برغم ماقيل عنه ويقـال ، ونرانا - على الرغم من المؤاخذات - أميل إلى الاعتذار منا إلى اللوم والملاحاة .

بين المازنى وابن الرومى :

أن تكون بين المازنى وابن الرومى آصرة هو المـنتظر والمطلوب ، ومن الغرابة ألا نعثر على هذا التشابه مع وجود مـايرشحه ، فإن بين الرجلين من خصائص المزاج والأعصاب - إلى حد ما - مايسمح بقيـام هذه الواشجة ومايمسح مجاهل الزمان والمكان - ويلتـقى الرجلان كـما تلتـقى القافلـة المنبتـة فى المفازة المهلكة بالـواحة الأريضة الظليلة ، يلتقيان صديقين حميمين .

أحزان وآلام ، وتشاؤم مـحب للدنيا ، ودقة أعصاب عارية ، وسـخر وهجاء لكل مالا يطيب من مناظر الكون ومشاهد الحياة ، وطيبة قلب واثقة تقابلها جهامة من الأحياء وأزمات الحياة ، وسقم فى الجسم ووهن ، وتنفيس بالشعر .

كل هذه شكول يلتـقى فيهـا ابن الرومى والمازنى التقـاء أمزجة ونحـائز ، قبل التقـاء لغات وأفكار وإعجـاب من جانب المازنى بصـديقه القديم ؛ وفـهم القديم للشعر ونظمه له بطريقة يعجب بها أصحاب الاتجاه التجديدى الذهنى بوجه عام ، وأثمر هذا الإعـجاب إنصاف ابن الرومى من ظلمـة الخمول التى أحـافت به قرونًا طويلة ، كتب عنه العقـاد كتابًا وكلامًا ضـخمًا وكتب عنه المازنى مقالات مـتعددة جمعها فى كتابه «حصاد الهشيم» ، تحس فيها بمدى إعجاب المازنى بصديقه القديم وتعاطفه الشديد معه كأنه يكتب عن نفسه .

ومن المتوقع غير المستغـرب أن تضح ملامح هذا الإعجاب فى كتابات المازنى ، وأن يتقدم إليه بمعارضة بعض جياد القصائد الطوال ، وأن يرتاح إلى هذه المعارضة ويأرن إليها كما يرتاح الجواد الكريم إلـى السباق ويأرن إليه ، وأن يظهر قدرته إلى

---

(٧٧) لانقصد بالطبع مايسمونه الشعر الحر .

جانب قدرة القديم ، وأن يوضح لصرعى المذهب العتيق أنه يفهم القديم أجود مما يفهمون ، ويستطيع النظم على غراره ، وقد أخذ أستاذنا الدكتور أحمد هيكل على أصحاب الاتجاه التجديد الذهنى معارضتهم بعض نماذج من الشعر القديم . . ومن أمثلة ذلك معارضتهم لنونية ابن الرومى [٧٨] ، وفى رأينا أن هذه المعارضة لست دليلاً على تعارض النظرية والتطبيق عندهم ، كما ارتأى فيها الدكتور هيكل، لأنهم رأوا فى ابن الرومى سنداً لنظرتهم الجديدة . . ولأنه «جعل القصيدة «كلاً واحداً لايتم إلا بتمام المعنى الذى أراده على النحو الذى نحاه ، فقصائده «موضوعات» كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولاتنتهى حتى ينتهى مؤداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ولو خسر فى سبيل ذلك اللفظ والفصاحة[٧٩] «ولأنهم رأوا فيه أيضًا «شاعرًا من طراز أولئك الشعراء الذين يقرأون لهم فى اللغات العربية ووقفوا على نمط من المعانى قريب من النمط الذى عهدوه فى كلام الفحول من شعراء الإفرنج ، ولاسيما فى الفكاهة الحقة البريئة من النكات اللفظية ، والوصف الصحيح البعيد عن شبهة المحاكاة والإحساس الصادق الذى يقتسر قيود الألفاظ والأوزان على أداء عبارته ، والنظرات المسددة التى لاتزيفها الزخارف الكاذبة» [٨٠] .

التفات العقاد والمازنى إلى ابن الرومى ومعارضتهم له لاتعارض فيها بين النظر والتطبيق . . لأنها التفاتة من نوع خاص وإن كانت للماضى ، ولأن ابن الرومى يكاد يكون شاعرًا معاصرًا عند أصحاب هذا الاتجاه ؛ ثم إن هذه المعارضة حدثت فى مطلع شبابهم وفورة حماستهم . . فالقصيدة فى الجزء الأول من ديوان كل منهما ، وليس «بعد امتداد الزمن بهم وبعدهم رويدًا رويدًا عن التحمس لتجديداتهم أو عن فترة رد الفعل الذى صاحب حركتهم التجديدية» كما يقول الدكتور هيكل [٨١] . . فضلاً عن أن المازنى له معارضة أخرى غير النونية ، وهى قصيدته الهمزية المطولة التى نحا فيها منحى ابن الرومى ، ولاحاجة بنا إلى

---

(٧٨) تطور الأدب الحديث فى مصر ، ص١٦٤ ، الطبعة الثانية ١٩٧١ ، دار المعارف .

(٧٩) ابن الرومى للعقاد ص٣٢١ ، ومقدمة العقاد لديوان ابن الرومى ، اختيار كامل كيلانى ، ص ل - مطبعة التوفيق الأدبية دون تاريخ .

(٨٠) مقدمة العقاد لديوان ابن الرومى ، اختيار كامل كيلانى ، ص ل ، م .

(٨١) تطور الأدب الحديث ، ص١٦٤ .

الاعتذار عن هذه المعارضات ، سواء عند المازنى أو العقاد لما أسلفنا من أسباب ، ولأنه من المستغرب ألاتحدث هذه المعارضات مع وجود هذا الإعجاب الشديد .

نقول نحا المازنى منحى ابن الرومى ونحن نقصد القول لأننا نحس بطريقة النظم عند كليهما ، فأنت تقرأ - مثلاً - النونية أو الهمزية تشعر بالمازنى كأنه يرتجل الكلام ارتجالاً ، ولم ينتزعه انتزاعًا بجهد وإجهاد ، ويسح بالشعر سحّا لاتحس فيه أثر الصنعة والترويض الشديد ، وكأنه يلقى بباله إلى الكلام فيطاوعه بدون معاظلة، يغترف من بحر - إذا صح التعبير - ولاينتشل من بئر تضطرب فيها الأرشية ، وتلك هى صفات الكلام عند ابن الرومى ؛ كلاهما كأنه يقول نثرًا لاشعرًا ، ولكن ليس له برودة النثر وجفافه ، وكأن القصيدة كتبت نفسها - كما يقولون - وهذه هى البساطة العميقة التى لاتريك الجهد المبذول ولاغبار الرحلة وإن كانا موجودين ، وهذا هو الكلام المطبوع، وليس معنى هذا أن قائله لايعانى أثناء كتابته ، فربما كان أكثر معاناة من غيره من المجودة والمحككة . . ولكن هذا الكلام يخرج فى النهاية ، كأن صاحبه أراده فكان بغير عرق جهد .

يقول المازنى فى نونيته :

ياليت لى والأمانى إن تكن خدعا ... لكنهن على الأشجان أعوان

غارا على جبل تجرى الرياح به ... حيرى يزافرها حيران لهفان

والبحر مصطقى الأمواج تحسبه ... يهيجه طرب مثلى وأشجان

إذا تلفت فى خضرائه اعتلجت ... آذيه فلسرى منه إعلان

خل القصور لخالى الذرع يسكنها ... وخير ماسكن المعمود غيران

حسبى إذا استوحشت نفسى لبعدكم

بالبحر أنس وبالأرواح جيران

لا كـالرياح سـمير حين ثورتهـا ... إذ ما لأسـرارها فى الصدر إجنان

تفـضى إليك بنجـواها زمـامـهـا ... نم الصـبـاح بما يطويـه إدجـان

إذا الفـتى كـان ذا شجـو يميـد به ... مـعذبا بالمني مـن معـشر خـانوا

فنـعم مـسكـنه غـار لـه أبدا ... من السحـاب قلادات وتيـجان

ونعـم أقـرانه بحـر لـه زجل ... وسـاقـيـات لهـا سـجع وإرنان

وما أبالى وقـد أصبـحت مطرحا ... إذا خلت لى من الإنسان أوطان

مابى إلى الناس أطراب فأفقدهم ... إذا اعتزلت ، وهل لـلداء فقدان

بينى وبين الورى بون ، فأحج بأن ... يكون بيني وبين الناس وديان [٨٢]

وهكذا بقيـة القصيدة من هذه الطبـقة الجيدة التى تشـعر بالعفوية والتلقـائية ، والتى يستقصى فيها المازنى المعنى من كل أطرافه وجوانبه ديدن ابن الرومى .

ويقول ابن الرومى فى نونيته :

ومن عـجائب مـايمنى الرجـال به ... مـستضـعـفـات له منهن أقـران

منـاضـلات بنبل لاتـقـوم له ... كـتائب التـرك يزجـيـهن خاقـان

مـسـتظهـرات برأى لايـقـوم له ... قصير عـمرو ولاعمرو ، ووردان

من كل قـائلة قـتـلى وآسـرة ... أسرى وليس لها فى الأرض إثخان

يولين مـافـيـه إغـرام وآونة ... يولين مـافيه للـمشغـوف سلوان

ولايدمن عـلى حـال لمعـتـقـد ... أنى وهن كـمـا شـبـهن بسـتـان

يميل طـورا بحـمل ثم يعـدمـه ... ويكتـسى ثم يلفى وهو عـريان

حالا فـحالا كـذا النسوان قـاطبة ... نـواكـث دينـهـن الـدهـر أديـان

يغـدرن والغـدر مـقـبـوح يزينه ... للغـاويات وللغـاوين شـيطان

---

(٨٢) ديوانه ، ص ص١٠١ ، ١٠٢ .

تغدو الفتاة لها خل فإن غدرت ... راحت ينافس فيها الخل خلان

ما للحسان مسيئات بنا ولنا ... إلى المسيئات طول الدهر تحنان

يصبحن والغدر بالخلصان فى قرن ... حتى كأن ليس غير الغدر خلصان

فإن تبعن بعهد قلن معذرة ... إنا نسينا وفى النسوان نسيان

يكفى مطالبنا بالذكر ناهية ... أن اسمنا الغالب المعهود نسوان

لانلزم الذكر إنا لم نسم به ... ولامنحناه بل للذكر ذكران

فضل الرجال علينا أن شيمتهم ... جود وبأس وأحلام وأذهان

وأن فيهم وفاء لانقوم به ... ولن يكون مع النقصان رجحان(٨٣)

ويقول المازنى فى همزيته :

ذهب الود والوفاء جميعًا لهف أرضى عليهما وسمائى

وتبدلت من رجال وفاء كل غر مماذق في الوفاء

يتلقاك بالطلاقة والبشر وفى قلبه قطوب العداء

كالسراب الرقراق يحسبه الظمآن ماء ، وما به من ماء

عاجز الرأى والمروءة والنفس ضئيل الآمال والأهواء

ألف الذل فاستنام إليه وتباهى به على الشرفاء

ينسج الزور والأكاذيب نسجًا والأكاذيب ملجأ الضعفاء(٨٤)

ويقول ابن الرومى فى همزيته :

ما بأمثال ما أتيت من الأمر يحل الفتى ذرى العلياء

لا ولايكسب المحامد فى الناس ، ولايشترى جميل الثناء

ليس من حل بالمحل الذى أنت به من سماحة ووفاء

---

(٨٣) ديوان ابن الرومى – ص٢٧٠ ، ومابعدها ، والنسخة بدار المكتب المصرية . وقد حقق الدكتور حسين نصار الجزء الأول من الديوان .

(٨٤) ديوانه ، ص ص٦٠ ، ٦١ .

بذل الوعـد للأخـلاء سمـحـا وأبى بعـد ذاك بذل الغناء
فـغدا كـالخلاف يورق للعين ، ويأبى الإثمـار كل الإباء
ليس يرضى الصديق منك ببـشر تحت مخبـوره دفين جفاء (٨٥)

ونحسب أننا أطلنا اقتـباس النماذج ، ولكن السبب مـحاولة تقصى هذه الآثار (الرومية) لدى المازنى ، ولم نجـد بعد تطوافنا إلا إعـجابًا من المازنى بطريقـة ابن الرومى فى النظم ، والاستـيعاب والاسـتقصـاء لشعاب الكلام ، وسـهولة الأداء وتأتيه ، فيحس قـارئهما أنه يقرأ نثرًا لانظمًا ، وفى التـدليل المنطقى الشعورى أو مايسمـيه البلاغيون «التـشبيه الضمنـى» ، وفى الاستدراكات المقصـود بها الدقة ، وإخراج مايتوهم أنه داخل فى المراد .

وليس عند المازنى من آثار ابن الرومى غير ذلك خـلافًا لما ذهب إليه أحدهم ، حين قال مغاليًا : «إن المازنى يتأثر تأثرًا ظاهرًا وأحـيانًا قويًا فى كل شعره بالقدماء فى أساليـبهم اللغوية ، وعـلى الخصوص بابن الرومى الذى احـتذاه فى كثـير من أغراضه وقوافيه ، احتذاء لاينكره من له أدنى إلمام بديوان ذلك الشاعر »(٨٦) وليس عند المازنى من آثار ابن الرومى غـير مـاقدمنا . وهو إن ليم إلى - حـد ما - فى الآثار «الشريفية ، فلاجناح عليه فى الآثار الرومية» .

وخلاصة ماتقدم أن أدلة الاتهام متـخاذلة كليلة مرجوحة ، وأن أدلة الأصالة - كما قلنا سابقًا - ظاهرة بنفسها لاحاجـة بها إلى إثبات لأن القارىء يحسها ويشعر أنه أمام ذات متميزة ، وأنه يخسر شيئًا كثيرًا إن لم يقرأ ديوان المازنى ، وأن صورة الحياة تكون ناقصة من بعض وجوهها إن لم يطالع هذه الصفحة «المازنية» فى ديوان الشعر العربى .

وهو مـهمـا أوخذ - ومـا سلم من المؤاخـذة أحد - فليس حظه من الأصـالة بأوكس الحظوظ ، ولانصيـبه منها بأبخس الأنصباء إلا لدى المـوازين المختلة . أما حين يسـتقيم الميـزان . . فإن حظه من ذلك مـوفور ، وعليه نافلة من الإعـجاب الصادق والثناء المستطاب . . .

(٨٥) ديوانه - مـخطوط - ص٢ مـابعدها . وقد حقق الجزء الأول منه الدكتور حسين نصار ، ولكن لم أتمكن من العثور عليه ؛ لأنه حتى هذه اللحظة التى أكتب فيها لم يخرج للناس .
(٨٦) محمد عشرى الصديق فى مقال له بمجلة «الفجر السودانية ؛ العدد الثانى ١٦ يونيو ١٩٣٤ .